ياسوناري كاواباتا

راقصة إيزو

وقصص أخرى

ترجمة: بسام حجّار

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

راقصة إيزو

وقصص أخرى

ياسوناري كاواباتا

ترجمة بسّام حجّار

الكاتب: ياسوناري كاواباتا
عنوان الكتاب: راقصة إيزو وقصص أخرى
ترجمة: بسّام حجّار
X
العنوان باللغة الأصلية: 伊豆の踊子
الكاتب: 川端 康成
X
تصميم الغلاف: يوسف العبدالله
تنضيد داخلي: سعيد البقّامي
X
ر.د.م.ك: 978-9921-775-53-2
الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2022
4000 نسخة
X
جميع الحقوق محفوظة للناشر ©
X
الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة
تلفون: 40 04 81 98 965 +
بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي
تلفون: 60 58 00 11 78 964 +
takween.publishing@gmail.com takweenkw
takween_publishing TakweenPH
www.takweenkw.com
X
لبنان - بيروت / الحمرا
تلفون: 683 345 1 961+ / 980 541 1 961+
بغداد - العراق/ شارع المتنبي، عمارة الكاهجي
تلفون: 07830070045 / 07810001005
daralrafidain@yahoo.com Dar alrafidain

راقصة إيزو

(١)

كان الدرب الضيّق يرتسمُ بعددٍ من المسالك المتعرّجة حتّى كنت أحسب أنّني لن ألبث أن أصل إلى قمّة جبل «أماجي». كنت أرى وابل المطر يغسل غابة «الكريبتوميرياس» الكثيفة والذي كان يُطاردني منذ السفح بسرعة مخيفة.

كنت في العشرين.. ألبس قبّعة تلميذ وأرتدي كيمونو أزرق غامقاً ذا زركشات بيضاء وبنطالاً واسعاً ذا ثنيّات، وأحمل على حقيبتي المدرسيّة. كنتُ غادرت بمفردي منذ أربعة أيام زرت شبه جزيرة «إيزو»، أمضيتُ الليلة الأولى في منتجع جبلي في شوزلجي، ثمّ ليلتين في منتجع يوغاشيما، وفي تلك اللحظة كنت جاثماً على كعبيّ الخشبيين أتسلّق جبل «أماجي».

الخريف في كدسة الجبال تلك، والغابات العذراء والأودية السحيقة كانت تسحرني بالطبع، ولكنني برغم ذلك كنت أحث الخطى وقلبي مفعمٌ بآمالي. ثمّ بدأت قطرات المطر الضخمة تصفع وجهي. فأسرعتُ في تسلّق الدرب المتعرّج بشدّة حتّى وصلت أخيراً إلى فناء «بيت الشاي» الذي كان يقف كما في ورديّة حراسة على المدخل الشمالي لممر أماجي. وهناك تريثتُ بعض الوقت حيث وجدت مأوًى دافئاً وكانت فترة انتظاري لا تخلو من الروعة إذ تعرّفت بين المقيمين على فرقة الأعياد الريفية الصغيرة.

حين رأتني واقفاً، نهضت الراقصة لتقدم لي الأريكة التي كانت تجلس هي عليها، قلبتها بتهذيب ووضعتها بجوارها.

«مَمَ!» غمغمتُ وسارعت بالجلوس.

ذلك أنني كنت متهالك الأنفاس بعد تسلّقي الجبل مهرولاً، هذا بالإضافة إلى أنها فاجأتني بما فعلت. ظلّت كلمات الامتنان التي وددت أن ألفظها عالقة على طرف فمي. ولكي أخفي مدى ارتباكي لوجودي فجأة قبالة الراقصة وعلى مسافةٍ بمثل ذلك القرب، تناولت تبغاً من طيّة كمّي. فوضعت أمامي منفضةً كانت موضوعة أمام إحدى صاحباتها.

كانت الراقصة تبدو في السابعة عشرة. تسريحة شعرها ذات طابع تقليدي لم أر مثله من قبل لكنّها تتناسق مع وجهها ذي القسمات الصارمة وإن كانت تجعله يبدو رقيقاً جدّاً. وكانت تذكّر بإحدى بطلات الروايات الشعبية. أمّا صاحبتها فكانت امرأة على مشارف الأربعين. وكان ثمة فتاتان أُخريان وشابٌ في الخامسة أو السادسة والعشرين. وكان هذا الأخير يرتدي سترة قصيرة وواسعة من القطن الأبيض وعلى ظهرها شعار أحد الفنادق في أحد منتجعات «ناغاوكا».

كنت صادفت فرقة الأعياد الريفية هذه في السابق مرتين. في المرّة الأولى عند جسر يوغاوا على طريق يوغاشيما. وكان أفرادها عندئذ يحاولون الوصول إلى شوزنجي. كانت الراقصة تحمل طبلاً صغيراً. يومها التفت إلى الوراء عدّة مرّات ليتسنّى لي أن أراهم جيداً وانتابني إحساسٌ عميق بأنني أصبحت مسافراً حقيقياً. وفي المرّة الثانية عندما كنت أمضي ليلتي في يوغاشيما، كانوا في تلك الليلة يقدمون استعراضهم في النُّزُل الذي أقمتُ فيه. واستطعت، وأنا متكئ على درابزين الدرج، بين الطابقين، أن أتأمّل بكل كياني حركة الفتاة التي كانت تتنقّل على مصطبة الخشب عند مدخل النُّزل.

ذاك النهار في شوزنجي، ثمّ ذلك المساء في يوغاشيما... إذن لا بدّ أنهم عازمون على قطع جبل أماجي ثمّ متابعة طريقهم نحو الجنوب مروراً بمنتجع يوغانو الجبلي. وانطلاقاً من هذا التقدير الذي قد يكون اعتباطياً حاولت أن أحثّ خطاي. وعندما دخلت إلى بيت الشاي لأتّقي المطر رأيتهم أمامي، وهذا ما كنت أتمناه وشعرت بالارتباك.

وما هي إلّا برهة حتّى جاءت امرأة عجوز، هي مدبّرة المكان واقتادتني إلى ردهة أخرى. ولم ألحظ باباً جرّاراً ـ فحسبت أنها في العادة غير مخصصة للزبائن. كنت أتأمّل، في

الأسفل أمامي، مدى عمق الوادي حتّى يكاد يضلّ في جنباته البصر. وكان برد تلك الأمسية مُعتماً. كنت أشعر بقشعريرة في بدني وكنت أرتعد وتصطكّ أسناني وعندما أخبرت المرأة العجوز التي قدّمت لي الشاي عن حالتي هذه أدخلتني إلى الحجرة التي كانت تحتفظ بها لنفسها هي وزوجها.

لا بدّ أنني واجهت هناك موقداً مفتوحاً. إذ غمرت الحرارة حين سحبت الباب. إلّا أنّني تردّدت، عند العتبة. فإذا بعجوز، أمامي، منفوخٍ كغريق وشاحبٍ يجلس على الأرض ويرمقني بنظراتٍ مُقطّبة، وتبدو عيناه متحلّلتين حتّى الحدقتين. كان مغطى بأكوامٍ من الورق والأكياس المكدّسة من حوله. وقفتُ في مكاني وقد أذهلني الظهور العجائبي، هذا الكائن الجبلي الذي كنت أجد صعوبة في أن أراه رجلاً حيّاً.

«أستميحك عذراً يا سيّدي، لأنني جعلتك تلتقي بمثل هذا العجوز ولكن لا تخشى شيئاً، إنه زوجي العجوز. قد تجده دميماً جداً ولكنني أطلب منك أن تستبقيه هنا لأنه لم يعد يقوى على الحركة».

بعد أن اعتذرت على هذا النحو، حدّثتني عنه. فمنذ وقت طويل وهذا الرجل يحيا مشلولاً شللاً كاملاً. وأكداس الورق التي رأيتها هي رسائل وصلته من مختلف البلدان وفيها وصفات طبيّة لمرضه، أمّا الأكياس فتحتوي على علب الأدوية التي استطاع أن يستقدمها من الخارج. كلما سمع عن دواء جديد من أحد المسافرين، أو كلّما رأى إعلاناً في صحيفة عن عقاقير جديدة كان يُسارع في طلب الحصول عليها، وكان يقضي أوقاته في تأمل كلّ هذه الرسائل وهذه الأكياس، ولا يقبل أن يُرمى منها شيء. وهكذا تكدّس، عبر السنين، هذا الجبل من الأوراق والأكياس.

حين لم أجد ما أردّ به على العجوز انحنيت فوق الموقد، وكانت سيارة مسرعة تعبر في الخارج وترجّ أرجاء البيت.

سألت نفسي، لماذا لا يُغادر العجوز هذا المكان الذي يلفّه الصقيع منذ أيام الخريف الأولى والذي لن يلبث أن تبيّضه الثلوج؟

كانت النيران تتأجج في الموقد حتّى أنّ البخار بدأ ينبعث من ثيابي وشعرت بصداع حادّ. وكانت السيّدة العجوز في هذه الأثناء تتحدّث إلى أفراد جوقة الأعياد في ردهة المطعم:

«غير معقول! إنّها الفتاة الصغيرة التي كنتم تصطحبونها معكم في الماضي؟ كبرت إلى هذا الحدّ؟ يجب أن تكونوا في أتمّ السعادة لأن آنسة صغيرة مثلها معكم. آه، كم تكبر الفتيات بسرعة! كم هي جميلة!».

بعد مضي نحو ساعة، فهمت، من الجلبة في الردهة المجاورة أن أفراد الفرقة يغادرون. ولم يكن هناك ما يستبقيني أنا أيضاً. إلّا أنني، برغم خوفي من أن أفقد أثرهم، لم أستطع أن أنهض. واستطعت أن أقنع نفسي، وأنا بجوار الموقد مغتاظاً، أنني سأعرف كيف ألحق بهم في مرحلة واحدة حتّى ولو تأخرت عنهم كيلومتراً أو كيلومترين، ذلك أنّ المرأة لها طاقة محدودة في سير المسافات حتّى ولو كانت معتادة على الأسفار الراجلة.

بعيداً عن الراقصة وصحبها، أخذت مخيَّلتي تتفتَّح كما لو أنّ غيابهم أطلقها.

سألت مضيفتي، التي كانت علمت برحيلهم للتوّ.

- أين سيمضون ليلتهم؟

- من يعلم أين ينام أناس من هذا النوع؟ سوف ينامون أينما وجدوا مُتَسَكّعاً لهم! فالأرجح أنّهم لم يخطّطوا لقضاء هذه الليلة.

لقد بدا لي كلامها محبطاً ويعبّر عن ازدراء عميق، خاصّةً وأن رغبة راودتني بأن أدعو الراقصة لأن تشاركني غرفتي في تلك الليلة.

كان المطرُ تحوّل إلى رذاذ خفيف، وانقشعت قمة الجبل. وحاولت السيّدة العجوز جاهدةً أن تستبقيني وأن تقنعني بأن الطقس سيتحسَّن أكثر خلال عشر دقائق أخرى، ولكنني كنتُ لا أطيق صبراً.

«أيّها السيّد المسكين. اعتنِ بنفسك فلن يلبث أن يحلّ الصقيع!» قلتُ هذا من أعماق قلبي فيما كنت أنهضُ وأهمّ بالرحيل.

هزّ العجوز برأسه وَهِناً والتفت نحوي بعينين صفراوين ونظرات ثقيلة.

«هذا كثير! ردَّدت المرأة وهي تتبعني. أنا لا أستحق كلّ هذا! أنت رجل طيب جداً! ولا أعرف كيف أعبّر لك عن امتناني».

برغم ممانعتي الشديدة، أصرّت على مرافقتي لبعض الطريق حاملة بين ذراعيها حقيبتي التي رفضت أن تعيدها إليّ. تبعتني بخطواتها المتثاقلة نحو مئة متر وهي تردّد باستمرار: «لم يكن الأمر يستحقّ كلّ هذا، لم يكن يستحقّ. اعذرني لأنني أسأت استقبالك على ذلك النحو. سيظل وجهك محفوراً في ذاكرتي. قد يكون بإمكاني أن أعبّر لك عن امتناني لكرمك في زيارتك المقبلة. حاول أن تعود لزيارتنا، فأنا لن أنساك أبداً».

وبما أنني لم أعطها سوى قطعة نقديّة واحدة من فئة الخمسين سنساً، كانت عبارات امتنانها الصادق تكاد تستدرّ دموعي، إلّا أنّ مشيتها البطيئة والمترنحة كانت تحرجني إذ كنت لا أطيق صبراً على اللحاق بالراقصة.

وصلنا أخيراً إلى مدخل النفق. «شكراً جزيلاً، ولكنك تركت زوجك العجوز بمفرده، إنّه ينتظرك!» وأعادت إليَّ، أخيراً، حقيبتي وكأنها أُرغمت على ذلك. وتوغلت في النفق، كانت المياه الباردة ترشح من جنباته قطرةً قطرة؛ وفي الطريق المقابل كانت بقعة ضوء تفتح الطريق إلى جنوب شبه جزيرة إيزو.

(٢)

كان طريق الممرّ الجبلي، الذي يحاذيه من جهة حاجز مطليّ بالأبيض، يتقدَّم متعرّجاً كما لو أنّه التماع برق ينبعث من فم النفق. وفي أقصى المشهد الماثل في عينيّ كمُجسّم، كنت أميّز أخيلة أفراد فرقة الأعياد.

لم أقطع في سيري أكثر من خمسمئة متر حين وجدتني ألحق بهم، لكنني لم أجرؤ على التباطؤ فمررت بجوار النساء متصنّعاً اللامبالاة. أمّا الرجل الذي كان يسير بمفرده في الطليعة فتوقف عندما رآني وقال لي:

- «إنك تسير بسرعة. لقد تحسّن الطقس. يا له من حظّ!».

وفيما كنتُ أردّ على كلامه بزفرة ارتياح حاولت أن أضبط خطواتي على وتيرة خطاه وتابعت سيري بمحاذاته. وأخذ يطرح عليّ بعض الأسئلة، وحين لاحظت النساء أنّنا بدأنا نتحدّث، هرعن للانضمام إلينا.

كان الرجل يحمل سلّة مصنوعة من أغصان السوحر على ظهره. وكانت المرأة الأربعينية تحتضن كلباً صغيراً بين ذراعيها. أمّا بكر الفتيات فكانت تحمل بالة صغيرة مغطّاة بمربّع قماش فيما كانت الفتاة الثانية تحمل هي أيضاً سلّة من أغصان السوحر. وكانت الراقصة تحمل على ظهرها الطبل الصغير وقاعدته الخشبيّة.

بدأت بكر الفتيات بالحديث تدريجاً. «إنه تلميذ» أسرّت في أذن الراقصة. «صحيح»، أجابت هذه الأخيرة وهي تداري ابتسامة خفيفة. «أعرف ذلك لأن التلاميذ يفدون لزيارة جزيرتنا».

كانوا جميعهم من ميناء «هابو» في جزيرة أوشيما. وأخبروني أنّهم في ترحال متواصل منذ أن غادروا الجزيرة في الربيع الماضي. أمّا في الوقت الحاضر ومع حلول فصل البرد فهم في طريق العودة إلى ديارهم لأنّهم لم يجهّزوا أنفسهم بما يقيهم قساوة المناخ. وفي

طريق العودة يمرّون بكل المنتجعات الجبلية لشبه جزيرة إيزو ولكنهم سيمكثون لعشرة أيام في ميناء شيمودا.

كنت أحسّ بشاعريّة ما تفعم قلبي وهم يثيرون أمامي ذكريات أوشيما فيما كنت أتأمّل تسريحة الراقصة الجميلة. طرحت عليها بضعة أسئلة عن هذا الميناء.

«كثير من الطلبة يأتون للاستجمام وللسباحة. أليس كذلك؟ قالت الراقصة وهي تتوجه بسؤالها عمداً إلى الفتيات.

- أجل، في فصل الصيف، أجبتُ مُلتفتاً إليها.

- وحتى في فصل الشتاء، قالت مرتبكة.

- في الشتاء أيضاً؟».

وأطلقت ضحكة عالية وهي تنظر إلى صاحباتها.

وتعمّدت الإصرار: «هل السباحة ممكنة حقّاً في فصل الشّتاء». فتورّد خدّاها وأشارت برأسها بهزّة خفيفة بعد أن استعاد وجهها ملامح الرصانة.

«يا لكِ من غبيّة!» قالت المرأة الأربعينية.

كان الطريق ينحدر مسافة ثلاثة فراسخ وصولاً إلى يوغانو وبمحاذاة وادي كازوغاوا. وكان يكفي أن أرى ألوان الجبل والسماء، منذ ولوجنا الممرّ الجبلي، لكي أكون على ثقة بأننا على مشارف الظهيرة.

كنّا، شيخ الفرقة وأنا، قد أصبحنا أصدقاء وكنا نواصل حديثنا أثناء سيرنا الطويل. وهكذا مررنا بقرى صغيرة -هاجيموري وناشيموتو-، ووصلنا أخيراً إلى مكان نستطيع منه أن نرى، على سفح الجبل سقوف القشّ لبيوت يوغانو. وغامرتُ عندها بسؤاله عمّا إذا كان

باستطاعتي أن أتابع رحلتي معهم حتّى شيمودا. وبدا لي أنّه كان شديد الاغتباط لطلبي هذا.

وأمام نُزل البلدة البائس، كانت المرأة تهمّ بتوديعي حين قال لها الرجل: «إنّ السيّد يرغب في متابعة رحلته معنا.

- عظيم، قالت بتلقائية. «رفيق الدرب، صداقة عُمر»، هذا ما يقوله المثل. إذ قد يستطيع أناس معدمون مثلنا أن يلطفوا ضجر الرحلة. ادخل معنا إذن لكي تستريح يا سيّدي».

التفتت الفتيات الثلاث نحوي ورمقنني بنظرات خجولة، إلّا أنّني لم أحسب أنّ طلبي بدا لهن مُستهجناً.

صعدت معهم إلى الطابق الأوّل لأضع حقيبتي. كانت الفواصل الجرّارة والحصر المفروشة على الأرض وسخة وقديمة. وأحضرت الراقصة، وهي متورّدة الخدين، أكواب شاي من الطابق السفلي وقدّمته لنا ولكنّ يدها كانت ترتجف بقوة حتّى أنّ الأكواب كادت تقع على الأرض. وضعت كوبي على الأرض لكي تتجنب وقوعه ولكنّ هذا لم يمنع اندلاق السائل على الحصير. وشعرت بشيء من الخيبة إزاء هذا المقدار من الحياء.

«يا للفظاعة! ها هي باتت ترتبك لوجود الجنس الآخر! يا الله!» قالت المرأة الأربعينية مقطّبة وقد بدا عليها الضيق، ورمت لها بفوطة تلقتها الفتاة بارتباك ومسحت الشاي المندلق على الأرض.

لقد دفعتني هذه الملاحظة الخرقاء لأن أسترجع بعض ذاتي وأحسست أنّ الحلمَ الذي منحته مدبّرة النزل في الممرّ الجبلي جناحين قد سقط الآن. وظننتُ أنني أسمع الآن صوت انكساره.

فجأة وجّهت المرأة الأربعينية كلامها إليّ.

«إنّ نقش الكيمونو الذي ترتديه لأنيق فعلاً» وحدّجتني بنظرة مستغرقة، «فهذا القماش يوحي بأنه من نفس قماش كيمونو تاميجي. إنّه نفس القماش أليس كذلك؟».

وبعد أن ألحّت على الفتاة التي تقف بجوارها لتؤكد ما تقوله أضافت المرأة:

«أفكر في ولدي الذي تركته في البلد. فهو لا يزال في المدرسة. حتّى هذا النوع من القماش بات مرتفع الثمن الآن. إنّه لمؤسف حقّاً.

- إلى أي مدرسة يذهب؟

- إنّه في السنة الخامسة.

- آه؟ لا يزال في السنة الخامسة؟

- يرتاد مدرسة كوفو. أنا أقيم في أوشيما ولكن مسقط رأسي في كوفو في مقاطعة كاي».

كنت أحسب أنني سأمضي ليلتي في نفس النزل الذي سيمكثون فيه، ولكن بعد ساعة من الراحة، اصطحبني الرجل إلى مأوى آخر. غادرنا الطريق العريض وانحدرنا في دروب وعرة ضيقة مسافة مئة متر. ثمّ عبرنا جسراً، بجوار الحمّام العمومي، المحاذي لنهر صغير ووصلنا، على الضفة الأخرى، إلى حديقة النزل الذي سأقيم فيه.

كنتُ في الحمّام الكبير حين لحق بي الرجل. وروى لي أنّه في الرابعة والعشرين وأن زوجته فقدت جنينين في حالتي إجهاض، وبعض الاعترافات الحميمة من هذا النوع. أمّا أنا فافترضت انطلاقاً من النقش على ظهر سترته الزرقاء، أنّه من منطقة ناغاوكا. وأوحى لي وجهه الذي ينمّ عن ثقافة كما هي طريقته في التعبير أنّه يرافق نساء الفرقة بدافع الفضول أو ربّما حبّاً لإحداهنّ ولا بدّ أن تكون تلك التي يحمل متاعها.

وما أن خرجت من صالة الحمّام حتّى تناولت طعام الغداء. كنّا غادرنا يوغاشيما في صبيحة اليوم نفسه نحو الساعة الثامنة ولا بدّ أن تكون الساعة الآن تجاوزت الثالثة بعد

الظهر. غادرني الرجل الشاب عائداً إلى نزله البائس وحيّاني من الحديقة رافعاً رأسه باتجاهي.

«اشترِ لنفسك بعض الفطائر! واعذرني إذا كنت أرمي لك المال من هنا!» قلت له وأنا أرمي ببعض القطع النقدية ملفوفة بورقة. لكنّ الرجل ابتعد رافضاً قبول المال، إلّا أنّه حين أدرك أنّ النقود باتت على الأرض، عاد أدراجه ليلمّها، وقال لي وهو يرميها إليّ من جديد:

«ليس من الضروري أن تفعل ذلك، حقاً». سقطت النقود على سطح القش. فتناولتها ورميتها له من جديد. فأخذها وذهب.

عند حلول المساء، أخذ المطر يهطل غزيراً. وفقد منظر الجبل الذي تغسله الأمطار أيّ عمق. وكانت مياه النهر الذي يجري بمحاذاة النزل قد أصبحت صفراء عكرة وتحدث ضجيجاً هائلاً. عندها فكّرت أنّ هذا الطوفان سيحول دون مجيء الراقصة وصحبها، فلم أنتظر أكثر في مكاني واغتسلت عدة مرّات لكي أستعيد هدوئي. كانت غرفتي معتمة. والمصباح الكهربائي المثبت في فتحة مربّعة في أعلى الفاصل المتحرّك الذي يفصل غرفتي عن غرفة جاري، يُضيءُ الغرفتين معاً.

تنامت إلى مسامعي أصداء قرعٍ على الطبل برغم الجلبة التي يسبِّبها هطول المطر. ففتحت مصراع النافذة الجرّارة بقوة حتّى أنني كدت أكسرها وانحنيتُ بجذعي إلى الخارج. وبدا لي أن صوت الطبل يقترب. صفعني الهواء المشبع بقطرات الماء. وحاولت، وأنا مغمض العينين ومرهف السمع، أن أتتبّع مسار هذا الإيقاع. وبعد قليل تناهت موسيقى الشاميزين. وسمعت صراخ نساء وضحكات مجلجلة. وأدركت أنّ أفراد الفرقة يؤدون استعراضهم في صالة نزل آخر، قبالة النزل الذي يقيمون فيه. واستطعت أن أميّز ثلاثة أصوات لنساء وثلاثة أو أربعة أصوات لرجال. وقلت إنّ أفراد الفرقة سيأتون لزيارتي في النزل حالما ينهون نمرتهم، فانتظرت. إلّا أنّني لم ألبث أن راودني انطباع بأن غبطة روّاد المقصف تخبو تدريجاً وأنهم سيحدثون جلبة كبيرة. وبالفعل علت أصوات صراخ حادة وكأنها تثقب جنبات الليل.

مكثتُ طويلاً بلا حراك متأهّباً ومغتاظاً قرب مصراع النافذة المفتوحة. وكلما سمعت قرع الطبل كانت جذوة الأمل تنبعث في قلبي.

«آه، كنت أقول في سرّي، إنها لا تزال جالسة هناك، تنتظر وهي تقرع الطبل في صالة المطعم...».

وعندما توقف القرع أحسست بقلقٍ شديد. واستغرقتُ في أعمق أعماق جلبة المطر.

بعد برهة وجيزة -هل يلعبون هناك، أو يرقصون- تناهت جلبة خطوات غير منتظمة وتواصلت لبعض الوقت. ثمّ ران صمت تام.

كنت أحاول أن أشحذ نظراتي ما استطعت في الظلام، وكنت أحاول أن أدرك معنى هذا الهدوء، وأرتعد خوفاً لشدّة قلقي من أن تدنّس هذه الليلة نقاء الراقصة.

أغلقت النافذة وتمدّدت ولكنّ الألم كان يعتصرني. فاغتسلتُ من جديد وأنا أحرّك المياه بعنف.

توقف المطر. وبدا القمر. وكانت الليلة الخريفية المبلّلة بالمطر تنتشرُ مشعّةً وصافية. قلت لنفسي إنني ما عاد باستطاعتي أن أفعل شيئاً! ولكنني ما أن تلفظت بهذا، حتّى وجدتني أهرع حافي القدمين خارج صالة الحمّام.

كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل.

(٣)

في صبيحة اليوم التالي، ومنذ الساعة التاسعة، جاء رجل الفرقة لزيارتي. وبما أنني كنتُ قد استيقظت من النومِ لتوّي، دعوته لأن يشاركني حمّامي الصباحي. في ذلك النهار كانت السماء صافية مشعّة والطقس ربيعيّاً، إنّ تلك المنطقة تقع في الناحية الجنوبيّة من شبه

جزيرة إيزو. وكان النهر الذي يجري بجوار النزل وقد ضخّمت الأمطار مجراه يجحف أشعة الشمس. وبدا لي أنّ ألم الليلة الفائتة لم يكن سوى حلمٍ مزعج.

ومع ذلك قلت لرجل الفرقة الجوّالة:

«لقد كان الجوّ فرحاً حتّى ساعة متأخّرة من ليلة أمس!

- دعْكَ من ذلك! هل كنت تسمع؟

- أعتقد أنّه كان بإمكاني أن أسمع جيّداً!

- إنّهم بشر على قدر كبير من الغلظة. الضجيج، لا يجيدون غير الضجيج. لا تُعطي بالك».

وإزاء عدم اكتراثه حرصت على عدم الإلحاح. إذ كان يتكلّم بلامبالاة كاملة.

«إنهنّ في الحمّام في النزل المقابل. وها هنّ قادمات! لعلّهن فَطِنَّ إلينا...».

وتتبعتُ بعينيّ الجهة التي كان يشير إليها بسبّابته: ورأيت، على الضفّة المقابلة، سبعة أو ثمانية ظلال تتراءى عبر البخار المتصاعد في الحمّام العمومي. ثمّ لم ألبث أن رأيت امرأة عارية تهرع خارج صالة الاستحمام المعتمة. وتوقفتُ على طرف الشرفة قرب عهدة الثياب وكأنها توشك على الوقوع أرضاً، تلفّظت صارخة ببضع كلمات، وهي تفرد ذراعيها. لم تضع على جسدها العاري ولو فوطة واحدة. إنّها الراقصة.

عندما رأيت هذا الجسد البضّ والساقين الرشيقين كجذع الباولونيا، أحسست بماء بارد يسيل في قلبي وابتسمت بدعة وأنا أتنهد ارتياحاً.

كانت لا تزال طفلة. وكانت من الطفولة بحيث إنها هرعت، لفرحتها أن ترانا، عاريةً تحت أشعة الشمس ووقفت قبالتنا على رؤوس أصابعها. ارتسمت الابتسامة طويلاً على شفتيَّ وامتلأ كياني بغبطة صافية، كما لو أنّ دماغي قد غُسِلَ من ظنون الأمس.

إنّ شعرها الكثيف والطريقة التي ترتدي بها ثيابها وتجعلها تبدو صبيّة هي التي جعلتني أعتقد أنها في السابعة أو الثامنة عشرة. وأدركت أنني كنت غبيّاً في حسباني.

كنت مع رجل الفرقة في غرفتي حين جاءت أكبر صاحباتها لتأمّل روضة الأقحوان في حديقة النزل. وكانت الراقصة تتبعها، كانت قد وصلت إلى منتصف الجسر ولكنّ المرأة ا لأربعينيّة خرجت من الحمّام والتفتت باتجاه الفتاتين. هزّت الراقصة كتفيها وعادت أدراجها بسرعة وهي تضحك وكأنها فتاة صغيرة تعرف أنها ستنال التأنيب على سلوكها. اقتربت المرأة من الجسر ونادت عليّ:

«تعال إذن لزيارتنا!» وردّدت بكر الفتيات من بعدها: «هلّا جئت لزيارتنا إذن». ثمّ ذهبتا.

مكث رجل الفرقة حتّى هبوط الليل. وفي المساء، بينما كنت أمارس لعبة «الغو» مع بائع جوّال كان يبيع الورق بالجملة، سمعت فجأة قرع طبل يتناهى إليّ من حديقة النزل.

«لقد أتى الفنانون الجوّالون، قلتُ وأنا أهمّ بالنهوض.

- أجل، أجل وما المهمّ في ذلك! هيا، هيّا يا سيّد إنها نقلتك الآن. لقد لعبت أنا الآن». أجاب خصمي المأخوذ كليّاً باللعبة وهو يربّت بأصابعه على علبة الأحجار.

كان القلق ينخر كياني. وبدا لي بعد قليل أنّ فناني الفرقة يغادرون وسمعت من الحديقة صوت الرجل وهو يصرخ: «عِم مساء!».

عندئذٍ هرعت إلى الشرفة، وأشرت إليهم بيدي أن يدخلوا. فتوجهوا نحو الباب. وتناهت إليّ أصداء غمغمات. حيّتني الفتيات الثلاث اللائي كن يسرن خلف الرجل، على طريقة فتيات «الجيشا»، بوضع أيديهن مفتوحة على طرف الحافة عند عتبة الباب. وعلى رقعة «الغو» بات وضع لعبتي محرجاً.

فأعلنت لخصمي: «لم يعد بإمكاني أن أفعل شيئاً، لذلك أنا أنسحب من اللعبة.

- لا أبداً. بالعكس، أنا أعتقد أنّ وضعي أكثر إحراجاً. فأنا لم أتفوق عليك بمقدار كبير».

ودون أن يلتفت ولو مرّة واحدة باتجاه فنّاني الفرقة كان تاجر الورق يضع أحجاره بدقة متزايدة وبعد تأمل طويل في كلّ مربّعات الرقعة وضعت الفتيات الثلاث الطبل والكمان في زاوية الغرفة وأخذن يلعبن على رقعة أخرى لعبة مبسّطة من ألعاب الغو. وكانت النتيجة أن خسرت اللعبة، رغم أنني كنت أتقدّم على خصمي في البداية. وكان التاجر العنيد يلحّ عليّ:

«ماذا لو لعبنا من جديد؟ أرجوك، مرّة أخيرة»، ولكنني كنت أكتفي بالابتسام ولا أستجيب لطلبه، حتّى رضخ في النهاية ونهض.

اقتربت الفتيات من علبة الأحجار.

«هل ستقومون بجولة عزف أخرى هذا المساء؟».

«جولة أخرى، نعم»، قال رجل الفرقة وهو ينظر إلى الفتيات، لكنّه أضاف: «ولكن باستطاعتنا أن نتوقف الآن؟ ما رأيكنّ؟ ماذا لو طلبنا منه أن نمضي السهرة عنده؟

- يا لها من فكرة جيدة! يا لها من فكرة جيّدة!

- ألا تتعرّضون بذلك للتأنيب؟

- دعْكَ! على كلّ حال ليس هناك زبائن!».

مكثوا حتّى منتصف الليل حول رقعة الغو.

وبعد ذهاب الراقصة أحسست باضطراب كبير في داخلي ولم أستطع أن أنام، فخرجت إلى الرواق وناديت على تاجر الورق:

«يا سيّد، يا سيّد!

- ها أنذا!».

خرج التاجر العجوز -كان على مشارف الستين- من غرفته.

«سوف نسهر، سنلعب حتّى الصباح. هل تشاركني؟».

فقد كنتُ أنا أيضاً في مزاجٍ لا يقبل بالهزيمة.

(٤)

كنّا نوينا أن نغادر يوغاشيما في الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي. اعتمرت كسكيت كنت اشتريتها من حانوت قرب الحمّام العمومي ووضعت قبعة المدرس في الحقيبة وتوجهت إلى النزل البائس حيث يقيم الفنّانون بمحاذاة الطريق العريض. كانت غرفتهم تطل مباشرة على الشرفة. فدخلتُ دون أن يخطر لي بأنّهم لا يزالون نياماً.

تسمّرتُ على العتبة مرتبكاً: كانت الراقصة مستلقيةً، متورّدة الخدين، عند قدميّ في سرير تشاركها فيه فتاة أخرى. فسارعت بإخفاء وجهها بكفّيها، إذ كانت الطبقة السميكة من مسحوق التجميل لا تزال تغطي وجهها منذ الليلة الفائتة، فيما زال بعض أحمر الشفاه والخطّ البنفسجي الذي ترسمه على طرفي عينيها. أربكني الموقف الذي وضعتها فيه كما أربكني انفعالها. استدارت في سريرها كما لو أنّ ضوءاً مفاجئاً يبهرها، ثمّ تسللت من بين الأغطية وجاءت إلى الرواق حيث جلست على ركبتيها.

«كلّ امتناني لأنّك استقبلتنا ليلة أمس» قالت لي وهي تحييني بحركة بالغة الأناقة، أمّا أنا فكنت أقفُ كالأخرق في مكاني.

كان رجل الفرقة ينام إلى جانب المرأة الأكبر سنّاً. وقبل أن أفاجئهم هكذا لم يخطر لي من قبل أنهما متزوجان.

«أرجو أن تعذرني، قالت المرأة الأربعينية، وهي لم تغادر سريرها كليّاً. كنا عزمنا على المغادرة هذا الصباح، ولكن طُلبَ منّا أن نبقى هذه الليلة، لذلك أرجأنا رحيلنا إلى الغد. إذا كنت مضطراً للرحيل اليوم، فسوف نلتحق بك في شيمودا. سوف نقيمُ في نزل كوشويا ـ ولن تجد مشقّة في الاهتداء إليه».

انتابني شعورٌ بأنهم يودّون التخلّص مني.

قال الرجل: «ألا تستطيع أن تمكث أنت أيضاً؟» الوالدة تصرّ على تأخير سفرنا أربعاً وعشرين ساعة. ولكن لا بدّ أنّك تفضّل أن تكون مصحوباً في سفرك، لذلك تريّث حتّى الغد، فتغادر معنا.

- أجل، وهو كذلك. أردفت المرأة. نرجو منك المعذرة لنزوتنا هذه بعد أن قبلت بصحبتنا. سوف نغادر في الغد مهما حدث. فبعد غد تحلّ ذكرى اليوم التاسع والأربعين لوفاة طفلنا الذي فقدناه أثناء سفرنا. وتعاهدنا على أن نبذل المستحيل لكي يتاح لنا أن نحيي هذه الذكرى في شيمودا. وكنا نحثُّ خطواتنا لكي نصل إلى هناك قبل هذا الموعد. قد يكون من غير اللائق أن نطلب منك ذلك ولكن يبدو أنّ قدراً مستغرباً يجعلنا مقرّبين لبعضنا البعض، لذلك هل أستطيع أن أطلب منك أن تأتي وتصلّي معنا بعد غد؟

عزمت إذن على إرجاء رحيلي ونزلت.

بانتظار نهوض أصدقائي تناولت أطراف الحديث بسرعة مع أحد النزلاء أمام مكتب الاستقبال القذر. ثمّ لم يلبث رجل الفرقة أن دعاني إلى نزهة. سرنا قليلاً بمحاذاة الطريق العريض الذي ينحدر باتجاه الجنوب ولفتنا هناك جسر جميل. اتكأ الرجل بمرفقيه على حافة الجسر العالية وأخذ يروي لي حياته.

كان عمل لبعض الوقت مع جوقة شيمبا في طوكيو، وهي فرقة ذات ميول حديثة في المسرح الكلاسيكي. وكان يحدث له، من حينٍ لآخر، أن يلعب دوراً على مسرح ميناء أوشيما...

من بالات الفرقة التي كان يحملها الفنّانون معهم يظهر شكل على هيئة ساق: إنه غمد سيف. وشرح لي الرجل أنّه كان يلعبُ في الحفلات بعض مشاهد من المسرح الكلاسيكي. وكانت سلّة السوحر تحتوي على ملابس الفرقة وبعض الأواني المنزلة كالحلل والطاسات وغيرها.

«لقد أفسدت مستقبلي، قال، وهويت إلى أسفل المدارك، ولكن أخي البكر يتولّى بجدارة أمور العائلة في «كوفو». فلم يعودوا بحاجة إليّ الآن.

- كنت أحسب أنّك من ناغاوكا.

- آه، حقّاً؟ بكر الفتيات تكون زوجتي، إنها في التاسعة عشرة أي تصغرك بسنة واحدة. أثناء سفرنا وضعت طفلاً ولكنّ ولادتها كانت مبكرة فمات الرضيع بعد أسبوع واحد. وهي نفسها لم تتعاف حتّى الآن. أمّا المرأة الكبيرة فهي أمّها الحقيقية ولكنّ الراقصة شقيقتي.

- آه، إذاً كنت تتكلم عنها عندما كنت تقول لي إنّ لديك أختاً في الرابعة عشرة؟

- بالضبط. لم أكن أرغب في أن أدفعها لمثل هذه الحياة، ولكنْ هناك أسباب كثيرة...».

وأخبرني أنّ اسمه إيكيشي، واسم زوجته شيوكو، واسم أخته كاورو. أمّا الفتاة الأخرى، واسمها يوريكو، فهي من أوشيما. وهي مستخدمة الفرقة الصغيرة. كان إيكيشي المستغرق في عواطفه يحدّق في الساقية القليلة المياه. وكان وجهه يبدو وكأنّه على حافة البكاء.

في طريق العودة صادفت الراقصة، وقد غسلت وجهها من المساحيق، تجلس على قارعة الطريق وتداعب رأس الكلب الصغير. انتابتني الرغبة في أن أعود إلى نزلي، فسألتها:

«أتودين مرافقتي إلى النزل؟

- أجل، ولكن ليس بمفردي...

- مع أخيك إذن..

- انتظرنا لحظة».

بعد قليل كان رجل الفرقة يدخل إلى غرفتي بمفرده.

«والآخرون؟

- إنهنّ... يعني أنّ الوالدة صارمة جدّاً!».

ولكن فيما كنا نلعب دقّ «غو» منفرداً، عبرت الفتيات الجسر وصعدن إلى الطابق الأوّل بخطوات خفيفة. ركعن في الرواق لإلقاء التحيّة بلطفهنّ المعتاد، ولكنهنّ كنّ يتردّدن في الدخول. نهضت شيوكو قبل الأخريين وقلتُ:

«إنها غرفتي. ادخلي إذن ولا داعي لهذه المراسيم».

بعد أن لعبنا لمدة ساعة، توجه الفنانون إلى صالة الحمّام في النزل ودَعوني للانضمام إليهم، ولكنّ وجود الفتيات الثلاث جعلني أستبعد دعوتهم. وقلت لهم إنني سأنضم إليهم في وقت لاحق. ولم يمض وقت طويل حتّى صعدت الراقصة إلى غرفتي لتبلّغني رسالة من زوجة أخيها: «تطلب منك أن تأتي. سوف تفرك لك ظهرك».

بدل أن أذهب للاستحمام لعبت معها دق «غو» منفرداً ووجدت أنّها أبرع مما كنت أتوقّع.

عندما نظمنا مباراة مع الفنانين الآخرين، لاحظت أنها تغلّبت بسهولة على شقيقها وصاحباتها. أمّا أنا، وكنت أتغلّب بسهولة على خصومي، لم أستطع أن أفوز باللعبة إلّا بعد

جهد كبير. وكنت أشعر بمتعة كبيرة لأنني مجبر على بذل ما بوسعي لكي أفوز.

في البداية، كانت تشعر بالحرج لأننا نلعب وحدنا، وكانت تمدّ يدها من بعيد لتنقل أحجارها، ولكنها سرعان ما استغرقت في حماسة اللعبة وباتت تنحني على رقعة اللعب. وكانت خصلات شعرها الأسود، النادر الجمال، تلامس صدري.

فجأة قالت وهي تحمرّ خجلاً:

«أستميحك عذراً، يجب أن أغادرك، سأتعرّض للتأنيب». وبعد أن تلفظت بهذه العبارة، هرعت راكضة وتركت أحجارها كما هي.

كانت الوالدة تقف أمام صالة الحمّام العمومي. ولم تلبث شيوكو ويوريكو أن خرجتا مسرعتين واتجهتا نحو النزل الذي تقيم فيه الفرقة دون المرور بالطابق الأوّل. أمّا إيكيشي فقد أمضى النهار كلّه في غرفتي، منذ الصباح الباكر وحتى هبوط الليل.

نصحتني مدبّرة النزل، وهي امرأة بسيطة وساذجة، بأن أكفّ عن استقباله. «لا ينبغي أن تستضيف أناساً من هذه الطينة» قالت المرأة.

ذاك المساء، ذهبت أنا نفسي لزيارتهم. كانت مدبّرة الفرقة تمرّن الراقصة على العزف على آلة الشاميزين. وحين رأتني توقفت عن العزف، ولكنها عاودت العزف بعد أن نهرتها مدرّبتها. كانت تغني أيضاً برقة بالغة. ولكنّها كلّما رفعت صوتها قليلاً كانت المرأة تردّد: «ألم أقل لك، لا ترفعي صوتك!».

من مكاني، حيث أقف، كان باستطاعتي أن أرى إيكيشي مُنهمكاً بما لا أدري ما هو في صالة في الطابق الأوّل لمطعم غير بعيد.

«ما هذا؟

- إنها موسيقى «نو».

- إنها موسيقى النو الغريبة!

- إنه رجل كوني. لا بدّ أنّه يحتفظ لنا بمفاجآت كثيرة!».

أطلّ مسافر أربعيني، يُقال إنّه تاجر دجاج، وينزل في إحدى غرف هذا النزل البائس، فتح الفاصل الجرّار ونادى على الفتيات ليقترح عليهنّ مشاركته في وجبة طعام جيّد.

دخلت الراقصة إلى الغرفة المجاورة برفقة يوريكو وفي يد كلّ منهما زوجٌ من الأعواد الخاصّة بتناول الطعام، التهمتا دجاجة التاجر. عند دخوله إلى الغرفة برفقتهما ربّت الرجل على كتف كاورو، ولكنّ الوالدة صرخت بنبرة مفترسة:

«مهلُكَ يا رجل! لا تلمس هذه الفتاة! فهي لا تزال عذراء!».

ألحّت الراقصة كثيراً على تاجر الدجاج ليقرأ لها فقرة من كتاب: «مغامرات النبيل التائه» ولكنّه على عجلة من أمره وعليه أن يغادر. وحين لم تتجرأ على سؤالي بأن أتابع هذه القراءة، ألحّت الفتاة مراراً على الوالدة بأن تطلب مني ذلك بطريقة غير مباشرة.

تناولت كتاب القصص إذن، ولا أخفي أنّ أفكاراً اعتملت في رأسي. وكأنّها تستجيب لأمنياتي اقتربت الراقصة منّي. وعندما شرعت أقرأ قرّبت وجهها المنتبه منّي، ثمّ قرّبته أكثر حتّى كاد يلامس كتفي وهي تنظر إلى جبيني بثبات بعينين متّسعتين ولامعتين ودون أن يطرف لها جفن. كنت أحسب أنّها تفعل ذلك في العادة حين يقرأ لها أحدٌ كتاباً: فقد راقبتها مليّاً وهي تصغي إلى قراءة تاجر الدجاج. كانت قرّبت وجهها منه وكانت عيناها السوداوان الكبيرتان تلمعان. فعيناها أجمل ما فيها. وقد بدا لي أنّ حنيّة رموشها المتناسقة يندر مثيلها لشدّة جمالها. وكنت أجد في ابتسامتها تألّق الوردة المتفتّحة. وردة، بالفعل، لقد كانت تذكّرني بالوردة.

بعد برهة، جاءت إحدى خادمات النزل وبلّغتها رسالة. وما أن تهيّأت قالت الفتاة لي:

«سأعود بعد قليل. هلّا سمحت لي أن أطمع بلطفك وأطلب منك أن تنتظرني، علّك تقرأ عليّ بعد».

حين قالت هذا خرجت إلى الرواق ووضعت يديها على الحافّة بمثابة تحيّة.

«إلى اللقاء القريب!

- على الأخصّ لا تغنّي»، قالت الوالدة منبّهةً. هزّت الراقصة رأسها بالموافقة وحملت آلتها الموسيقية وغادرت. التفتت المرأة نحوي وقالت:

«إنّ صوتها يتكوّن الآن».

كانت الفتاة تجلس على ركبتيها بشكل لائق وهي تعزف على الطبل في الطابق الأوّل من المطعم.

كانت توليني ظهرها. وكنت أراها بوضوح حتّى بدت لي وكأنها في الحجرة المجاورة. وعلى إيقاع الطبل أخذ قلبي يخفق حبوراً.

«مع قرع الطبل تسود البهجة في الصالة»، قالت الوالدة التي كانت تنظر في نفس الاتجاه.

كانت شيوكو ويوريكو تجلسان هما أيضاً في تلك الصالة: وبعد ساعة تقريباً عاد الفنانون الأربعة.

«هذا كلّ شيء» قالت الراقصة وهي تسقط من يدها بعض النقود من فئة الخمسين سنساً وتضعها في كفّ الوالدة.

واصلت قراءة «مغامرات النبيل التائه» ولكنّ الفنانين لم يلبثوا أن عاودوا الحديث عن الطفل الرضيع الذي فقدوه أثناء الرحلة. وكانوا يردّدون بأنه كان طفلاً شفّافاً مثل المياه وأنه لم يكن يقوى حتّى على الصراخ. ومع ذلك فقد ظلّ يتنفّس طوال ثمانية أيام.

إنّ مظهر الترحاب الذي كنت أبديه لرفاق الدرب -وهو ترحاب خالٍ من أي فضول أو ازدراء، كما لو كنت أجهل إلى أي طبقة ينتمون- قد أثّر فيهم. وهكذا قرّ رأيهم، وبمعزلٍ عني، على أنني سأقيم معهم عند وصولنا إلى أوشيما.

«سوف تكون إقامة السيّد طيبة لدى الجدّ. فبيته هو الأوسع. وسوف يتمتع بالهدوء إذا أقنعنا العجوز بمغادرته. ويستطيع السيّد أن يمكث هناك قدر ما يشاء لإنجاز عمله.

هذا ما كانوا يرددونه فيما بينهم.

وقالت المرأة موضحةً:

- نحن نملك منزلين صغيرين، أحدهما، وهو على سفح الجبل، شبه خالٍ».

وقالوا إنهم سيقدمون مسرحية في كانون الثاني وإنني ربما كان باستطاعتي أن أساعدهم في شيء.

أيقنت عندها أنهم كانوا لا يزالون يرون بعين الرضا والتفاؤل إلى حياة الترحال التي يعيشونها، وأن نكهة البلاد التي ينتمون إليها لا تزال تهزّ مشاعرهم، وأنهم كانوا أقلّ تعاسة ممّا تخيّلت في البداية. وأدركت أيضاً أنّ الصلات العاطفية التي كانت تجمع فيما بينهم أقوى بكثير مما لو كانوا أفراد أسرة واحدة. وحدها يوريكو، مستخدمة الفرقة، كانت تظلّ صامتةً أمامي. لقد كانت، بالفعل في سنّ الفتيات اللواتي يصبحن خجولات. غادرت نزلهم بعد منتصف الليل بقليل. ورافقتني الفتيات إلى المدخل. وضعت الراقصة حذائي الخشبي أمام قدمي ثمّ أطلّت برأسها من النافذة لكي تتأمل السماء الصافية.

«آه! القمر! غداً سنكون في شيمودا. وكم أنا سعيدة لذلك. وعندما ينتهي احتفال ذكرى اليوم التاسع والأربعين سأطلب من الوالدة أن تشتري لي مشطاً. وهناك أمور أخرى كثيرة تثير الاهتمام. هلّا اصطحبتني إلى السينما؟».

إنّ ميناء شيمودا هذا يُشيع مناخاً خاصّاً، والفنانون الجوّالون حين كانوا يغادرونه في رحلة إلى منتجعات إيزو أو سماغامي، كانوا يحتفظون طوال رحلتهم بالحنين إليه، كما لو أنّه وطن صغير.

(٥)

كلّ واحد منّا حمل متاعه الذي كان يحمله عند عبورنا الممر الجبلي. وكان الكلب الصغير الذي كانت الوالدة تحمله بين ذراعيها وكأنّه اعتاد على الأسفار. فقد كان يضع قائمتيه الأماميتين على ساعد المرأة. وبعد أن تجاوزنا حدود مقاطعة يوغاشيمي، توغلنا من جديد من منطقة جبليّة. رفعنا أبصارنا نحو شمس الصباح: كانت ترتفع في السماء فوق البحر وتُدفّئ التلال. ونحو مهبط نهر كازوغاوا كان ساحل كازو يبدو متألّقاً تحت شمس النهار.

«هل هي هناك، أوشيما؟

- بما أنها تبدو كبيرة فلا بدّ أنها باتت قريبة جدّاً! قالت الراقصة. هلّا أتيت معنا، إكراماً لنا؟ أرجوك!».

ألأن الطقس كان جميلاً جداً؟ لقد بدا لي بحر الخريف، الذي يكاد يلامس الشمس وهو مغطّى بضباب خفيف، وكأنّه مشهد ربيعي. وكنّا وصلنا إلى مكان يبعد نحو عشرين كيلومتراً عن شيمودا. خلال بعض الوقت، كان منظر البحر يغيب ثمّ لا يلبث أن يتراءى لنا. ثمّ فجأة أخذت شيوكو تغنّي بصوت مُغتبط.

سألني صحبي، أثناء السير، عمّا إذا كنت أفضّل أن نسلك لاجتياز الجبل، درباً وعراً أقصر بكيلومترين أم الطريق الكبير وهو الأطول والأسهل. وبالطبع اخترت الطريق المختصر.

لقد كان درباً شديد الانحدار بمحاذاة دخل، تغطيه أوراق الشجر اللزجة. حثثت خطاي وأنا أسند ركبتيَّ لكي أحافظ على استقامة ساقيّ، حتّى بدأت ألهث تعباً.

في لحظات قليلة كنت تقدّمت على صحبي مسافةً لا بأس بها. كان باستطاعتي أن أسمع أصواتهم التي كانت تترامى إليّ من بين الأشجار، وكانت الراقصة وحدها برفقتي. كانت تسير بخطى ثابتة وتتبعني، رافعةً أطراف الكيمونو إلى أعلى، وكانت تبعد عنّي نحو مترين. حاولت في مشيتها أن تحافظ على هذه المسافة فيما بيننا. وعندما كنت أستدير لأكلّمها كانت تقف وقد بدت المفاجآة على وجهها فتبتسم لي. كنت أتوقف بين الحين والآخر آملاً بأن يتسنّى لها اللحاق بي ولكنها كانت تقف هي أيضاً ولا تعاود سيرها إلّا بعد أن أعاود سيري.

لم نلبث أن بدأنا نتسلّق درباً أضيق، وأكثر تعرُّجاً وكنت أحث خطواتي أكثر فأكثر ولكنّها كانت، بتصميم، تتبعني على بعد مترين. كانت السكينة تخيّم على الجبل. وكنا تقدّمنا على الآخرين مسافة لم نعد معها نسمع أصواتهم.

«في أيٍّ من أحياء طوكيو أنت تقيم؟

- أنا أقيم في مدرسة داخلية.

- أنا أيضاً أعرف طوكيو. لقد ذهبت إليها لأرقص في موسم زهر الكرز، ولكنني كنت لا أزال صغيرة وما عدت أذكر شيئاً منها».

كانت تسألني باستمرار، من هنا وهناك أسئلة لا رابط بينها.

«ألا يزال والدك حيّاً؟» و«هل سبق ورأيت كوفو؟» كما حدّثتني عن الفيلم الذي تود أن تراه في شيمودا ثمّ عن الطفل الذي مات.

عند خروجنا من الدغل وجدنا أنفسنا على قمة الجبل.

وضعت الراقصة طبلها على مقعد كان هناك في العشب اليابس، وتناولت منديلاً لتمسح عرقها. وكانت تهمّ بنفض الغبار عن قدميها، حين انحنت بحركة عاجلة، وأخذت تمسح

أطراف بنطالي الواسع. أجفلت وتراجعت قليلاً. فوقعت الفتاة على ركبتها.

ودون أن تنهض، أخذت تدور حولي وتمسح أطراف ثيابي، ثمّ سوّت أطراف الكيمونو الذي ترتديه. وحين رأتني أملأ رئتيّ بنفسٍ عميق قالت لي:

«اجلس!».

سُرْبة طيور جاءت وحطّت على الأرض قرب المقعد، وكانت السكينة تامّة على هذا الجبل بحيث كان باستطاعتنا أن نسمع صوت تكسر الأوراق اليابسة تحت قوائمها الخفيفة.

«لماذا تسير بمثل هذه السرعة؟».

كنت أداعب بأصابعي الطبل الذي صدرت عنه إيقاعات خفيفة، فطارت العصافير.

«آه، لو أحظى بجرعة ماء!

- سوف أحضر لك ماءً».

ولكن بعد برهة خرجت من الدغل المُصْفَرّ دون أن تعثر على الماء.

سألتها:

«ماذا تفعلون حين تمكثون في أوشيما؟».

شرعت تروي حكاية غامضة أوردت فيها اسمين أو ثلاثة أسماء لفتيات. ولم أكن أفهم إلى أين يُفضي كلّ هذا. وكنت أحسب أنها تتحدّث عن كوفو وليس عن أوشيما. تنتقي ذكرياتها كما يحلو لها وتتحدَّث، على الأرجح، عن رفيقات المدرسة الابتدائية التي ارتادتها لمدة سنتين.

انقضت عشر دقائق قبل أن يصل الشاب والفتاتان إلى القمة، وبعد عشر دقائق أخرى وصلت الوالدة.

في سيرنا انحداراً اخترت عمداً أن أظلّ في الخلف برفقة إيكيشي. ولم نكد نسير مسافة مئتي متر ونحن نتحدّث حتّى ركضت الراقصة باتجاهنا.

«هناك نبع ماء في الأسفل! تقول الأخريات إنّه يجب أن تأتي بسرعة، لأنهن ينتظرنك ليشربن».

عِنْدَ سماعي هذه الكلمات، هرعت راكضاً. كانت المياه الرقراقة تتدفق من بين الصخور، تحت ظلال الأغصان، وكانت النساء واقفات حول الينبوع.

«اشرب أنت أوّلاً يا سيّد. أخشى أن تتعكّر المياه عندما نمد أيدينا إليها. ثمّ، بعد أن تشرب النساء يصبح الينبوع مدنّساً».

كنت أروي عطشي مستخدماً كفيَّ اللذين جعلتهما في شكل وعاء. تريثت النساء في هذا المكان طويلاً وكن بين الحين والآخر يرطبْن أنفسهن بواسطة فوطة مبلّلة.

في الطريق نزولاً، سرنا على درب شيمودا. ورأينا أعمدة الدخان تتصاعد من المفاحم، وجلسنا في استراحات قصيرة على أكوام الخشب الموضوعة على جانبي الطريق.

وفي منتصف الدرب، انحنت الراقصة وأمسكت بالكلب الصغير وأخذت تمشّط وبره بمشط زهري لكي تنزع عنه ما علق به من أعواد وقشّ.

وبّختها الوالدة:

«سوف تكسرين أسنانه.

- ليست مشكلة، سأشتري واحداً جديداً في شيمودا».

ولمّا كنت، منذ لقائي بها في يوغانو، أود لو أحتفظ بهذا الشيء، الذي يثبّت كعكة شعر الراقصة في أعلى رأسها، لم أسرّ كثيراً لاستخدامه لتسريح وبر الكلب.

تقدّمت عليهنَّ برفقة إيكيشي قائلاً بأن قضبان البامبو التي لاحت لنا بعض حزمها قد تكون مفيدة لنا إذا استخدمناها كعُصي. تبعتني الراقصة راكضة: وحملت واحداً منها بدا أطول منها بكثير.

«ماذا ستصنعين بهذا؟» سألها الشاب.

وبشيءٍ من التردّد، قدّمته لي.

«إنّه لك لكي تستخدمه كعصا. لقد انتقيته من حزمة كاملة. إنه الأغلظ بينها.

- لا ينبغي أن تفعلي ذلك! قضيب غليظ كهذا لا بدّ أنّ من سيراه سيعرف فوراً أننا سرقناه. ممّا قد يسبب إحراجاً للسيّد. اذهبي وضعيه حيث كان».

عادت الراقصة إلى حزمة البامبو ثمّ ركضت باتجاهنا. وقدّمت لي هذه المرّة قضيباً غلظ الإصبع. وبعد ذلك أرخت نفسها مستلقية على كومة من قش الأرز، وكانت سقطتها عنيفة بحيث إنّها آذت كليتيها، ثمّ استقامت في جلستها لاهثةً، في انتظار النساء الأخريات.

كنا إيكيشي وأنا نسير متقدِّمين عليهنَّ بعشرة أو باثني عشر متراً.

«ليس أهون من ذلك، فقط لو ينزع كلّ أسنانه ويضع مكانها أسناناً أخرى، من ذهب».

التفتّ. كانت الفتاة تمشي بجوار شيوكو. وكانت الوالدة ويوريكو يتبعانهما على بعد خطوات. وحدست أنّ كلامهما يتعلّق بي. لا بدّ أن شيوكو كانت تتكلم على أسناني الرديئة. والراقصة تقترح أن أستبدلها بأسنان ذهبيّة.

بدا لي أنّهما أخذا يتفحصّان وجهي، ولكنْ لم يكن في نيتي أن أصغي إلى حديثهما إذ كنتُ موقناً من شعوري بأننا أصدقاء لذلك لم أفسر كلامهما على أيّ محمل آخر. واصل الصوتُ الأخشنُ حديثه لبعض الوقت، ثمّ سمعت الراقصة تقول:

«إنه شخص ودود، أليس كذلك؟

- ودود، آه، طبعاً!

- إنه ودود فعلاً. يا لروعة الرجال الودودين!».

كان لهذا الكلام في مسامعي صدى مجرداً، لقد كان التعبير الساذج والعفوي عن ميلهما. وأنا نفسي كنت أرى، ببساطة، أنني شخص ودود وكنت أتأمّل الجبل المشعشع بقلب صافٍ. وكنت أشعر بوخزٍ خفيف في باطن جفنيّ.

لقد صمَّمت على القيام بهذه الرحلة في شبه جزيرة إيزو بعد ساعات طويلة من التأمّل الصارم في ذات نفسي. إذ ما عدت أستطيع أن أتحمّل الكآبة التي استغرقتني حين تنبّهت إلى الحدّة في طباعي والتي كان سببها إحساسي بحالتي كيتيم. ومجرّد أن أبدو ودوداً -بالمعنى الأكثر شيوعاً للكلمة- في نظر صحبي، كان لي بمثابة تعويض لا يستهان به.

كنّا نقترب من بحر شيمودا. ولهذا السبب كانت الجبال تبدو لنا شديدة الوضوح. وبطرف عصاي التي كنت أحرّكها دوائر دوائر كنت أمزّق نجيليات الخريف الصغيرة.

وفي طريقنا إلى البلدة، ومن مكان إلى آخر، عند مداخل التجمّعات السكنية كنا نرى يافطات تحمل هذه الكتابة: «يمنع الشحّاذون والفنانون الجوّالون من دخول البلدة».

(٦)

وجدنا، بالقرب من حدود المدينة، عند المدخل الشمالي، نزلاً حقيراً، يُدعى فندق كوفو، تبعت الفنّانين إلى الطابق الأوّل، حيث غرفة أشبه بالكوخ ذات سقف واطئ. فحين يجلس واحدنا إلى النافذة التي تطلّ على الطريق العام، يلامس رأسه السقف.

«ألا تؤلمك كتفاك؟ سألت الوالدة الراقصة مراراً. ألا تؤلمك يداك؟ ألا تؤلمك يداك حقاً؟».

قلّدت الراقصة، بحركات رشيقة، قرعَ الطبل.

«لا أشعر بالألم، بإمكاني أن أقرع، بإمكاني أن أقرع!ـ يسعدني ذلك».

رفعت الطبل. «أوه، كم هو ثقيل!

- أجل أثقل مما كنت تظنّ! أثقل من حقيبتك!» قالت الفتاة مبتسمةً.

تبادل الفنّانون الجوّالون تحيّاتٍ فَرحة مع نزلاء الفندق الآخرين، وكلّهم أناس من الطينة نفسها: فنانون وطبّالون. وتكوّن لديّ الانطباع بأنّ ميناء شيمودا هو نوع من الملاذ الخاص لمثل هذه الطيور المهاجرة. أعطت الراقصة بعض القطع النحاسية الصغيرة لصبيّ كان تسلّق الدرج إلى غرفتهم. أمّا أنا فكنت أهمّ بمغادرة ذلك المكان عندما سبقتني الراقصة إلى الباب ووضعت حذائي أمام قدميّ.

«اصحبني إلى السينما» همست من جديد كما لو أنها كانت تحدّث نفسها.

شقيقها وأنا استدرجتنا أقدامنا إلى دار ضيافة كان صاحبها في السابق، عمدة البلدة. ثمّ رافقنا الرجل الأشبه بصعلوك قسطاً من الدرب. وبعد الحمّام تناولنا، إيكيشي وأنا، طعام الفطور - وجبة من السمك الطازج.

«أتريد أن تشتري وروداً لإحياء الذكرى غداً؟» قلتُ لصديقي الجديد الذي كان على وشك تجاوز حانوت الزهور، ووضعت في يده بعض النقود ملفوفة بورقة.

أما أنا فكان عليّ أن أستقلّ المركب إلى طوكيو في صباح اليوم التالي: فقد استنفدت كلّ ما وفّرته لرحلتي. وتذّرعت ببعض الظروف المدرسية، ولم يستطع الفنانون، برغم إلحاحهم، أن يستبقوني.

بعد الغداء، أي بعد أقلّ من ثلاث ساعات على الفطور، غادرت المدينة وحيداً متجهاً نحو الشمال. عبرت جسراً ثمّ بدأت تسلّق جب شيمودا - فوجي، الذي كنتُ أطلّ من قمّته على الميناء بكامله. وبعد هذه النزهة عدتُ ومررتُ بنزل كوفو لكي أجد الفنانين مُتحلّقين حول وعاء مليء بيخنة الدجاج.

«ألا تتناول معنا لقمة؟ الوعاء اتسخ من أعواد النساء، بالطبع، ولكنّ هذا يوفّر لك فرصة للتندّر». قالت الوالدة التي أمرت يوريكو بأن تغسل عودين إضافيين سحبتهما من حقيبة القصب.

رجوني مرّة ثانية أن أؤجّل موعد سفري ولو لنصف نهار على الأقلّ، بسبب الذكرى التي سيحتفلون بها غداً، ولكني، مصرّاً على الظروف المدرسية، حرصت أن لا أستسلم لرجائهم.

«إذن، في عطلة الشتاء، سنذهب جميعاً لاستقبالك على المركب، ردّدت الوالدة مراراً. أعلمنا بموعد وصولك وسوف ننتظرك. لا تقيم في نزل. سوف نذهب لإحضارك من المركب».

حين لم يبق في غرفتي سوى شيوكو ويوريكو، انتهزت الفرصة وعرضت عليهما مرافقتي إلى السينما. «أشعر بتعب، وأحس بأنني لست على ما يرام لكثرة ما مشينا». قالت شيوكو وهي تضغط بيدها على بطنها. كانت تبدو شاحبة بالفعل وعلى وجهها علامات الإعياء. أمّا يوريكو فقد طأطأت رأسها لشدة ارتباكها.

كانت الراقصة تلعب، في الطابق السفلي، مع صبيّ النزل. وحالما رأتني تمسكت بذراع الوالدة ملحةً في طلب إذنها بمرافقتي إلى السينما، ولكنّها عندما اقتربت منّا كانت تبدو حزينة واكتفت بوضع حذائي أمام قدميّ.

«ماذا؟ لماذا لا تستطيعين أن تتلقي دعوة إلى السينما بمفردك؟» قال إيكيشي، ولكنَّ المرأة لم تُرد أن ترضخ. ما السيّئ في ذلك؟ لقد بدت لي هذه القسوة غريبة فعلاً.

وأنا أهمُّ بالخروج من فناء النزل، رأيتُ الفتاة تداعب رأس الكلب. وكانت على وجهها ملامح غريبة من البرود واللامبالاة حتّى أنني لم أجرؤ على مخاطبتها. وبدت كأنها فقدت القوة حتَّى على رفع رأسها والنظر إليّ.

ذهبت إذن بمفردي إلى صالة العرض. كانت قارئة تقرأ على ضوء مصباح صغير القصة التي كانت تمثلها الصور، ولم ألبث أن غادرت مسرعاً لأعود إلى النزل.

كنت أسند مرفقيّ على حافة النافذة وأتأمّل طويلاً في المدينة الحالكة في الليل. حَسِبتُ أنني أسمع ضجة خفيفة ومتواصلة في البعيد. عندها، بدون سبب، جعلتُ أبكي.

(٧)

في الساعة السابعة من صبيحة رحيلي وفيما كنت أتناول طعام الفطور ناداني إيكيشي من الطريق. كان يرتدي هاوريّاً أسود نقش على ظهره شعار العائلة - لا بدّ أنّه ثوب خاص بالاحتفالات ارتداه لوداعي. ولاحظت أنّ أياً من نساء عائلته لم ترافقه فانتابني شعور مفاجئ بالوحشة. ثمّ صعد الشاب إلى غرفتي.

«لقد أردنَ، هنّ أيضاً، أن يصطحبنك إلى الميناء، ولكن تعذَّر عليهن النهوض لأنهنَّ أطلن السهرة ليلة أمس. أرجو أن تعذرهنّ. ويقلن لك إنهنّ ينتظرن زيارتك في الشتاء القادم».

كانت الرياح الباردة في ذلك الصباح الخريفي تعصف في أرجاء المدينة. وفي الطريق اشترى لي الفنان الجوّال أربع علب سكائر فاخرة وبعض الفطائر والملبّس المنعش ماركة كاورو. «بسبب أختي التي تدعى كاورو، قال لي بابتسامة خفيفة: لا أنصحك بالبرتقال على

متن المركب ولكن باستطاعتك أن تأكل بعض الفطائر. حتّى إنها قد تكون مفيدة لدوار البحر.

- هل تقبل مني هذه؟» سألته وأنا أنزع قبّعتي وأضعها على رأسه. ثمّ تناولت من حقيبتي قبّعتي المدرسية. وجعلنا نضحك معاً فيما كنت أحاول أن أسويَ ثنيّات القبّعة القديمة.

كنا اقتربنا من رصيف الركّاب عندما شاهدتُ، على الشاطئ، الراقصة وهي تجلس القرفصاء. فهزّني طيفها من أعماقي. لم تحرّك ساكناً قبل أن أصل إلى محاذاتها. عندما أطرقت دون أن تتخلّى عن صمتها. كانت تحتفظ بمساحيق الليلة الفائتة على وجهها ممّا جعلني أشعر بمزيدٍ من العاطفة؛ كان الخطّ الأحمر المرسوم على طرفي العينين يضفي مسحة من القسوة العابرة على وجهها الذي بدا لي غاضباً.

«هل ستأتي الأخريات أيضاً؟» سألها شقيقها.

هزّت رأسها نفياً.

«ألا زِلن نياماً؟».

هزت رأسها إيجاباً.

فيما كان إيكيشي يحضر لي تذكرة المركب البخاري وتذكرة الزورق السريع، كنت أتحدث إلى الراقصة عن أشياء وغيرها ولكنّها كانت تلازم صمتها العنيد خافضة عينيها نحو فتحة القناة التي تصبّ في البحر. وفي أفضل الأحوال كانت تهزّ برأسها أحياناً قبل أن أنهي حديثي.

هيه! أيتها العجوز، صرخ شخص له هيئة حفّار، هوذا الرجل المناسب. يا سيّدي الطالب، أنت ذاهب إلى طوكيو، أليس كذلك؟ سألني بلهجة أهل المنطقة. هل أطمع بطيبتك لأطلب منك أن ترافق هذه المرأة العجوز إلى طوكيو؟ إنها خدمة كبيرة أطلبها منك ولكني أطمع

بطيبتك. إنها امرأة بائسة. إنّ ابنها الذي يعمل في منجم رنداي - جي للفضّة، وزوجته قد ماتا بسبب النزلة الوافدة. إنّه وباء عانينا منه جميعاً. وتركا ثلاثة أطفال لا نعرف ماذا نفعل بهم. فتشاورنا وقررنا أن نرسلهم إلى بلد العجوز. بلدها «ميثو». وبما أنها لا تعرف شيئاً ينبغي أن تساعدها لكي تستقلّ قطار أوينو فور وصولكم إلى روياغان - جيما. لا شك أنّ في ذلك مشقّة لك، لكننا نتوسّل إليك مضمومي الأيدي. انظر إليهم! ألا يثيرون الشفقة؟

على ظهر المرأة التي كانت تقف مذهولةً بلا حراك، طفلٌ مثبّت برباط. وطفلتان، إحداهما صغيرة والأخرى أكبر منها بقليل، في الثالثة والخامسة من عمريهما، كانتا تمسكان بيديها، من جهة اليمين وجهة اليسار. ورأيت في صرّتها المتسخة وغير المربوطة بإحكام بعض كتل الأرزّ والبرقوق المملّح. خمسة أو ستة من عمّال المناجم يحاولون مواساتها. فقبلتُ، بطيب خاطر، أن أساعدها.

«إذن بإمكاننا أن نعتمد عليك؟ آه، شكراً! كان من المفترض أن نرافقها نحن إلى ميتو، ولكنْ تعذّر علينا ذلك»، هذا ما قاله لي عمّال المنجم كلّ على حدة.

كان الزورق السريع يتماوج بنا بقوّة. وكانت الراقصة تنظر في اتجاه آخر، تبدو واثقةً وتصرم شفتيها بغيظ كبير.

استدرت لكي أمسك بالسلَّم المصنوع من حبال. أرادت الفتاة أن تقول لي إلى اللقاء ولكنّها لم تستطع، واكتفت بأن أطرقت للمرّة الأخيرة.

كان إيكيشي لا يكفّ عن التلويح بالقبّعة التي أهديتها له. وعندما أصبحت في عرض البحر أخذت الفتاة تلوِّح هي أيضاً بشيءٍ أبيض.

اتكأت على حافة الزورق، ومن هناك، حاولت ألّا أحوّل نظري عن شيمودا حتّى غادر المركب الخليج وغاب القسم الجنوبي من شبه جزيرة إيزو عن عينيّ. وأحسست بأنّني انفصلت عن الراقصة منذ وقت طويل.

ذهبت لألقي نظرة على مقصورة المرأة العجوز فوجدت فيها عدداً من الأشخاص الذين كانوا يتحلقون حولها يحاولون كلّ صنوف العزاء. ثمّ دخلت، مطمئناً، إلى المقصورة المجاورة. كان بحر ساغامي مائجاً. فجلست وكان يحدث لي أن أُقذَفَ أرضاً من ناحية إلى أخرى. وكان أحد البحّارة يوزّع، جيئةً وذهاباً، أوعية معدنية صغيرة على الركّاب.

استلقيتُ مستعيناً بحقيبتي لأسند رأسي. كنت خاويَ النفس فاقداً لمعنى الوقت. أخذت دموعي تسيل بغزارة حتّى أنني اضطررت، بعد أن تبلّلت وجنتاي، أن أقلب وسادتي المرتجلة.

إلى جانبي كان يستلقي فتى، ابن مدير مصنع في كازو، وبدا أنّه يُشفق لحالي، ربّما بسبب قبّعتي المدرسية: كان متوجهاً إلى طوكيو للاشتراك في مباراة الدخول إلى المؤسسة نفسها التي أدرس فيها.

كنّا تحدّثنا قليلاً؛ فسألني:

«هل أصابك مكروه؟

- لا، أجبته بصراحة، إنَّما غادرتُ أحداً؛ كان ينظر إليّ وأنا أبكي، ولم أكن أشعر بأيّ حَرَج. لم أكن أفكّر في شيء. وبدا لي ببساطة أنني أنام في طراوة القناعة الصافية».

لم أر الليل يهبط على البحر. ولكني رأيت أنواراً على أشامي وآجيرو. كنت أرتعد وأشعر بالجوع. فردّ صاحبي زوادة رحلته مامي -كرات الأرزّ المطبوخ بالأشنات- فالتهمت ما معه وكأنني لا أشبع من زوادة آخر. ثمّ تلحفّتُ بمعطفي. كنت في حالة من الصفاء ومن الروعة بحيث إنني كنتُ أقبل بأي تصرُّف لطيف تجاهي وكأنّه مجرّد أمر عادي.

كما بدا لي أنّه أمر طبيعي أن أرافق المرأة العجوز إلى محطة أرينو، صباح الغد باكراً، وأن أُحضر لها تذكرة السفر إلى ميتو. فبالنسبة لي كلّ شيء كان في انسجام تام مع كلّ شيء.

انطفأ مصباح المقصورة. وكانت رائحة السمك الطازج والمياه تصعد إلى المركب وتزداد قوّة. كان الظلام سائداً، كنتُ أتدفأ بحرارة جسم صاحبي وكنت أدع دموعي تسيل. كان رأسي يَسيلُ في مياه رائقة ويجري دون أن يخلّف أثراً فيّ. وكنت أشعر برقّة ساكنة.

تلاقي

بعد الهزيمة، بدت حياة أتسوجي يوزو وكأنها بدأت يوم لقائه بفوجيكو. وقد يكون أقرب إلى الصواب، ربما، أن نتحدث عن لقائه نفسه.

آه! أن تحيا... حين رآها، تملكت يوزو الدهشة، دهشة خالية، في الأصل، من أية بهجة، من أي ألم. تلك اللحظة لم يحس بها، لا بكونها كائناً بشرياً، ولا بكونها مجرد شيء: كان ماثلاً أمام ماضيه، أمام ماضٍ له وجه تلك المرأة، حتّى بات في عينيه غير واقعي. غير أنّ الماضي الذي كان يعود على هذه الهيئة الملموسة فعلاً لا بدّ أن يكون هو الحاضر.

أية مفاجأة أن يتراءى لعينيه الماضي الذي يلاقي الحاضر!

القطيعة بين ماضي هذا الرجل وحاضره كانت الحرب. الحرب كانت تفسر بدون شك هذا الذهول. بل لنقل إنه لم يكن يتوقع أن يرى ما دفنته يبعث من جديد. ألا تقدر، إذن، السيول المتلاطمة للمذابح والدمار أن تفني هذه النثرات، هذه اللاأشياء، بين رجل وامرأة؟

كان اكتشاف فوجيكو على قيد الحياة يعني ليوزو أن يعود، هو نفسه، إلى الحياة.

كان انفصل عن هذه المرأة، كما انفصل عن ماضيه، دون مشاكل، وحسب أنّه استطاع أن ينسى المرأة والماضي. غير أنّ ليس للمرء، منذ ولادته، سوى حياة واحدة.

كان مضى نحو شهرين على تاريخ الاستسلام. وخلالها كان يرى الزمن ميتاً. وكان معظم الناس غارقين في دوامة. فالماضي والحاضر والمستقبل، سواء للأمة أم للأفراد، مفتتة في حالة من الهذيان الملتبس.

عند خروجه من محطة كماكورا لفت يوزو، الذي رفع عينيه نحو صنوبرات جادة واكاياما الكبيرة، تناسق الفصول التي تتعاقب بانتظام قرب القمم الجبلية. في طوكيو التي دمرتها

نيران الحرب. الأيام تمر وليس من يلتفت إلى إيقاع الطبيعة. كانت الصنوبرات اليابسة تحمل، هنا وهناك، ألوان داء كارثي. أمّا هنا فكانت صفوف الأشجار لا تزال، كلها تقريباً، مليئة بالحياة.

تلقى بطاقة بريدية من صديق في كماكورا يخبره عن الاحتفال في معبد هاشيمان في تسوروغاوكا، فأغرته الفكرة بالمجيء. وبما أنّ الاحتفال بإيحاء من قول الشاعر سانيغومو فإنّ ذلك يؤكد -أو على الأقل كان الناس يأملون ذلك- أنّ إله الحرب، هاشيمان، يضمر جديداً. فمنذ عودة السلام إلى البلاد، لم يعد أحد يشاهد الحشود المتدافعة في صفوف طويلة على باب المعبد طلباً للظفر العسكري أو النصر.

عند وصوله إلى مكتب إدارة المعبد، لم يتمالك يوزو دهشته من رؤية بضع فتيات ترتدين الكيمونو ذا الأردان الطويلة. وسبب دهشته أنّ معظم الناس لا يزالون يرتدون ملابس قديمة، تلك الملابس العسكرية البالية التي يرتدونها تحت القصف. أمّا تلك الفتيات فكانت ألوان ثيابهن زاهية جديدة.

دعي أيضاً لحضور الاحتفال بعض جنود الاحتلال: وكان على الفتيات أن يقدمن لهم الشاي. كان يبدو بوضوح أنّ هؤلاء الجنود، الذين أنزلوا على شواطئنا منذ وقت قريب، يرون الكيمونو للمرة الأولى في حياتهم. لذلك يجدون أنّه زي غريب ويلتقطون الصور باهتمام. وكان يوزو يفكر أن فكرة بقاء هذه الأزياء في التقاليد شبه مستحيلة لسنتين أو ثلاث خلت وبما أنّ مكانه في حفلة الشاي، في الهواء الطلق، كان في وسط ربيعة صغيرة، لم يخف عجبه من قوة احتمال هؤلاء الفتيات اللواتي ألبسن زياً مضحكاً في وسط هذا الجمهور البائس والكئيب.

كان لهذه الأثواب الطويلة الملوّنة أثر لا يستهان به على الوجوه وتصرفات اللواتي يرتدينها، جعله يعود تدريجاً إلى ذاته فاستفاق من أحلام اليقظة التي استغرقته.

وقف الأميركيون بتهذيب في صف طويل أمام الطاولات العارية الضيّقة التي نراها عادةً في المعابد، وعلى وجوههم أمارات فضول ساذج. ولم تلبث بضع فتيات، لا يجاوزن العاشرة من العمر، أن أحضرن الشاي. كانت سمات الرزانة والتبجيل على وجوههن على صغر قاماتهن، وزينتهن وسلوكهن يجعلانهن أشبه بممثلين أطفال في المسرح القديم.

لفتته أردان الكيمونو التي تسحب على الأرض، وزنار إحدى الفتيات وقد ربطته إلى أعلى، فجعله يشعر أنّ ما يراه لا ينتمي إلى الحاضر. لا بدّ أنّ هؤلاء الفتيات من أُسر عريقة ورأى أنهنّ يتمتّعن بالرشاقة والصحة ولكنهن يثرن في ناظريه انطباعاً بائساً. وبدت له آلاف النقوش والألوان التي تزين أثوابهنّ أقرب إلى السوقية والبربرية. وقال في سرّه: كم باتت تقنية الذين كانوا يصنعون هذه الأثواب قبل الحرب، وحسهم الفني، متخلفين وعديمي الذوق تماماً كالذين يرتدونها الآن. وتأكد له انطباعه هذا، فيما بعد، حين قارن بين هذه الأثواب والتي كانت ترتديها الراقصات.

كان الاستعراض الراقص على مسرح في باحة المعبد. في الماضي كانت الراقصات يرتدين أثواباً رائعة غير عادية أمّا الفتيات فكنَّ يلبسن أثواباً عادية. ثمّ أصبحت أثواب الفتيات أيضاً رائعة وغير عادية. وكذلك الأمر للتقاليد وأنماط السلوك في فترة ما قبل الحرب، وحتى طريقة عرض الأجساد الأنثوية كان إظهارها بشيء من المبالغة. أمّا أثواب الرقص، ذات النقوش الداكنة، فكانت في المقابل تحافظ على رصانتها.

لأن رقصة أورايازو، ورقصة الإله شيشي ورقصة الإله شيزوكو أو رقصة تبجيل الورود ـ كلّ تلك المظاهر التي كانت تسم اليابان التي يعرفها وباتت مدمرة، كانت تتردد أصداؤها في صدر يوزو وكأنها أنغام مزمار.

كانت إدارة الاحتفال حجزت كثيراً من المقاعد وخصصتها بجنود الاحتلال. والأماكن التي استطاع يوزو وآخرون أن يحظوا بها تقع قرب شجرة الجنكة القديمة التي تميل إلى الاصفرار. والأولاد الذين يرافقون أصحاب المقاعد الخلفية يجتاحون مقاعد المدعوين، ويشكلون، بثيابهم الرثّة، نوعاً من الخلفية المسرحية تبرز، من خلالها، ألوان الكيمونوات

ذات الأردان الطويلة وكأنها باقة ورود. وأشعة الشمس تخترق أغصان دغل التنّوب منحرفة وتوشي رواق المنصة الأحمر بفسحة ضوء.

غانية كانت أنهت لتوّها رقصة «تبجيل الورود» نزلت عن المنصة كأنها تهجر عشيقاً وابتعدت منفردة وأذيال ثوبها تنسحب على أرضية الباحة، فأحس يوزو الذي كان يراقبها بكآبة مفاجئة: كان طرف الثوب مستديراً ومحشواً بالقطن فيما تتدلى بطانة الحرير القائمة من جنباته. أمّا الكيمونو الذي يغطيه فكانت ألوانه فاتحة ويبدو أقصر من الثوب فتبدو أطرافه المتدلية وكأنها بشرة يابانية جميلة تنسحب، بجلال، على الأرض. وكأن كلّ هذا تعبير عن قدر الغانية الظريف فبدا له المشهد جميلاً ومؤثراً. وهذه الصورة توقظ في أعماقه مشاعر من الكآبة ممزوجة بالنشوة، رقيقة ولكنها لا ترحم.

كان سور المعبد، في هدوئه، أشبه بستار شفّاف مذهب الألوان.

وكان من المفترض أن تكون منصة شيزوكاغوزن تعبِّر عن أسلوب تقليدي يعود إلى القرون الوسطى، أمّا جزوكو فتعبِّر عن الأزمنة الحديثة. ولكن يوزو، وكان لا يزال يحيا مرحلة الهزيمة، لم يستطع أن يُميّز الفارق بين الرقصتين. وكان يحدق في المشاهد الراقصة حين لاح وجه فوجيكو فجأة أمام ناظريه.

حبست أنفاسه. آه، لا! قال وهو لا يتمالك نفسه من وقع المفاجأة وإن كان لا يزال غائب الذهن. ثمّ استجمع تيقظه وقال لنفسه إنّ إطالة النظر في ذلك الاتجاه لن تجلب له سوى المتاعب. غير أنّه لم يكن في استطاعته أن يرى في تلك المرأة كائناً حياً أو أن يرى فيها مجرد شيء مؤذ، ومكث في البداية ساكناً بلا حراك ولم يستطع حتّى أن يُحوّل بصره عنها.

عندما رآها تبدّد الدفق العاطفي الذي أثاره ثوب الراقصة. وبرغم أنّ فوجيكو لم تُثر في أعماقه أي انطباع قوي، لكنه حين تراءى له طيفها في عمق عينيه، وكأنها الشيء الذي ينبثق عند تقاطع الزمن والحياة، بات يرى في ذاته صفات الرجل الذي يستعيد ملكاته ويستعيد وعيه للعالم الذي يحيط به. وراحت تتنامى في داخله أحاسيس بالدفء -الدفء

الذي يشيعه جسد حي- وبالحميميّة، وبالتواصل مع جزء من ذاته، وكأنها أحاسيس تتسرب من شق أحدثته المفاجأة في قلبه.

كانت فوجيكو تتابع حركات الراقصة المتسارعة بنظرة حالمة. وشعوره بأنه رآها وعرفها فيما هي لم تلحظ وجوده، يغمر كيانه بإحساس غريب، وكذلك وجودها هنا لا تفصله عنها سوى مسافة عشرين متراً دون أن ينتبه أي منهما لوجود الآخر غير بعيد عنه.

فجأة نهض يوزو، دون أن يفكر ملياً في ما سيفعله، وربما بسبب نظرة الفتاة الخاوية، غادر مكانه واقترب منها ووضع يده على كتفها كما لو يوقظ شخصاً ساهياً.

أوه! قالت الفتاة. وبدا أنها ستتهالك في حضنه، ولكنها انتصبت في وقفتها برغم ارتعاشها. وكانت رعشتها تنتقل إلى يد يوزو.

«كم أخفتني! ما زلت حياً! كيف حالك؟» مكثت فوجيكو بلا حراك، مشدودة الأعصاب، وأحسّت لوهلة أنها ستقترب منه ليضمّها بين ذراعيه.

«أين كنت؟

- عفواً؟».

أتسأله ماذا يفعل هنا، في المهرجان؟ أو تسأله ماذا صنع في الحرب بعد أن هجرها؟ فعند سماعه وسنوات عديدة مضت، صوت هذه المرأة، نسي الحشد الذي كان يحيط به: كان يقف أمام فوجيكو. كلّ ما أحس به حين رآها من جديد بات يعتمل في داخله، ضاعف من مرارته ما أحست به هي أيضاً.

لو اختار أن يعيد علاقته بهذه المرأة فسوف يواجه تلك المشكلات الأخلاقية وسوف يعاني تلك المصاعب اليومية. ولكنه كان يستأنف طوعاً هذه العلاقة القاتلة.

وبرغم كلّ المشاعر التي تدعوه إلى الحذر حين تراءى له وجهها، استعاد هذه المرأة، قافزاً فوق الهوة التي امتدت أمامه بخفة، وكأنه يحيا ويتصرف، في طهارة العالم الآخر. أن يدرك الحقيقة الخالصة التي لا عوائق دونها... لم يشعر من قبل بأن الماضي يمكن أن يصبح حقيقياً، وملموساً. ولم يحسب أبداً من قبل أنّ أحاسيس الانبعاث الشهوي التي كانت تجمعه بهذه المرأة في الماضي يمكن أن تبعث من جديد.

لم يبد أنّ فوجيكو ترغب في إثارة المواجع والملامات. «لم تتبدل! أبداً!

- هيّا، لا أعتقد ذلك!

- لا، أبداً، صدّقني».

وبدا انفعالهما قوياً فجعل يوزو يُردّد: حقاً؟ حقاً تقولين؟

«ماذا حل بك منذ أن..؟».

فأجاب بامتعاض: «لقد خضت الحرب.

- أنت تكذب! إذ لا تبدو عليك ملامح من خاض الحرب!».

كان الناس من حولهما يضحكون سراً، وبدل أن يسبب لها ذلك أي إحساس بالحرج، أخذت تضحك بدورها. والآخرون يتنادرون بحسن نية على هذا اللقاء، العابر بين العاشقين وبدت فوجيكو مطمئنة إلى ما يفعلون.

أحسّت بحرج مفاجئ. وعندما انتبه لبعض التبديل في مظهر فوجيكو، كان لمحها من قبل وأصبحت أكثر بداهة في عينيه. فالمرأة الشابة التي كانت بدينة بعض الشيء في الماضي أكثر نحولاً، والأهم أنّ عينيها المجروحتين الضيقتين تلتمعان ببريق غير طبيعي تماماً. فهي التي كانت في الماضي ترسم رموشها الصحرة الدقيقة لا تضع الكحل الأسود. وبرغم خديها المقعرين الهزيلين والشاحبين فإنّ وجهها كان يبدو مسطحاً: إذ كان كما سوّته

الطبيعة. كانت بشرتها البيضاء تكفهر قليلاً عند منبت الرقبة ومعالم التعب محفورة في محجريها. وكانت تهمل تسريح شعرها الناعم وكان رأسها يبدو صغيراً. عيناها فقط تعبّران عن مدى انفعالها لرؤيته من

جديد.

لقد لاحظ فارق السن بينهما وكان أقل وضوحاً في الماضي، من شأنه أن يبرِّر أي رغبة له في الابتعاد من جديد، ولكن، دون أن يفهم لماذا، كانت نبضات قلبه الفتية الصاخبة لا تهدأ.

«أنت لم تتبدل فعلاً» ردّدت فوجيكو.

أفسح لنفسه من خلف الحاضرين فتبعته وهي تراقب تعابير وجهه.

«وزوجتك؟».

لم يجب.

«وزوجتك؟ كيف حالها؟

- إنها بخير.

- هذا يسعدني! والأولاد؟

- بخير أيضاً. عملت على إجلائهم.

- آه! إلى أين؟

- إلى الريف، قرب كوفو.

- حقاً! ومنزلك؟ هل استطعت أن تنقذه؟

- لا، لقد احترق كلياً.

- إنه أمر فظيع! ومنزلي أيضاً؟

- أين؟

- في طوكيو، طبعاً.

- ماذا! كنت في طوكيو؟

- أين تريدني أن أكون، امرأة وحيدة مثلي.. لم يكن لدي أي مكان أذهب إليه، أي مكان أحيا فيه!».

ارتعد يوزو وأحسّ الأرض تميد تحت قدميه.

«هذا لا يعني ما دام الموت هو الموت أنني كنت أؤثر الموت في طوكيو! لا يهم، في الحرب، كيف تحيا أو ماذا تلبس! كنت في صحة جيدة، كنت... المهم، لم يكن عندي ما أشكو منه.

- ألم تعودي إلى مقاطعتك؟

- وهل أستطيع، أبداً، أن أعود إلى مقاطعتي؟».

كانت نبرة هذا الجواب في صيغة السؤال المردود تحمله مسؤولية ما تقول، ولكن المرأة الشابة لم تظهر أي جفاء. وكان صوتها لا يخلو من شبهة غنج.

أية حماقة ارتكبها إذ نكأ جرحاً قديماً! أحس يوزو بشيء من الخجل ولكنَّ فوجيكو بدت وكأنها لا تزال تحيا تحت صدمة الحرب، ويخشى أن تصحو من وطأة هذه الصدمة.

مرة أخرى دهش لإحساسها بالتعب من كلّ شيء. كان خلال الحرب، نسي كلّ التزام له تجاه هذه المرأة. وكان انفصاله عنها والتخلي عن صلة تعيسة لا يُفسّر إلّا بعنف الزمن. فقد

محت سيول الحرب المتدفقة كلّ مسؤولية معنوية تنبثق من هذه اللاأشياء الصغيرة التي تنسج العلاقة بين رجل وامرأة.

والآن، إذ يجدها على هذه الحال، يخيفه سؤاله عن الوسائل التي أعانتها على البقاء، على مجاوزة صعوبات الحياة في مثل هذه الحقبة. ربما تكون جهدت، أيضاً في تبرير تظلّمهما. وكان وجهها يقول بوضوح إنّ ميلها القديم إلى الغضب الهستيري زال تماماً. لم يكن يسعه أن ينظر إلى وجهها مباشرة، ولكنّ الدموع كانت في عينيها.

استطاع يوزو بمرفقيه أن يفسح لنفسه بين حشد الأولاد المجتمعين خلف المقاعد المحجوزة، ووصل إلى مدرج الحجر أمام المعبد، فتسلق خمس درجات أو ست درجات وجلس. ظلّت فوجيكو واقفة وهي تنظر إلى المبنى الذي يرتفع خلفها:

«في هذه الأيام ما عاد يأتي أحد تقريباً لزيارة هذا المعبد. واليوم، أي حشد هو هذا!

- ولم يرجم أيضاً، معبد إله الحرب!».

طاف الحشد بغير هدى حول المنصّة، واتجه نحو الباحة على عتبة المدرج الكبير. ومنافذ المعبد تغصّ بالناس. راقصة تؤدي رقصة جنروكو! وجوقة موسيقى الجيش الأميركي على المنصة! في الأمس القريب كان مثل هذا المشهد يستحيل في مثل هذا المكان.

لم يكن لأحد من الزائرين لا السلوك ولا الثياب الملائمة لهذا المهرجان. غير أنك ما أن ترى هذا الحشد متدافعاً بين الأشجار، قرب المباني الملحقة بالمعبد، حتّى الصنوبرة الكبيرة، ثمّ على طول صفوف شجيرات الكرز، قرب البوابة الضخمة، حتّى يكون نسيم الخريف الندي يملأ صدرك.

«لحسن الحظ أنّ كماكورا لم تدمر، أليس كذلك؟ هناك فارق كبير... أشجار ومناظر، إنها حقاً مشاهد اليابان القديمة.

لقد أحبطني مظهر الفتيات.

- ماذا كان انطباعك عندما رأيت هذه الكيمونوات؟

- فهنَّ لا يستطعن ركوب التراموای، هل تدرك ذلك؟ أنا، في الماضي، كنت أستطيع ركوب التراموای وكنت أتنزه في شوارع المدينة وأنا أرتدي ثياباً مماثلة». قالت فوجيكو وهي تخفض نظرها نحو يوزو. ثمّ جاءت وجلست جواره وأضافت: عندما كنت أرى هذه الكيمونوات كنت أحس ببهجة ما للحياة، وفيما بعد، حين أفكر في الأمر، أشعر وكأنني أحيا في اللاوعي الكامل. إنه أمر كئيب. لا أفهم ماذا حلّ بي؟

- كلنا أصبحنا هكذا» قال يوزو محاولاً أحاديث أخرى.

كانت فوجيكو ترتدي بنطالاً -واسعاً- لونه أزرق سماوي وعليه زركشات بيضاء، ولا بدّ أنّه في الأصل بنطال رجل أعيد تفصيله بهذه الطريقة. وتذكر يوزو أنّه ارتدى، هو أيضاً، ثياباً عليها هذه النقوش.

«زوجتك، عائلتك، تقيم في كوفو وأنت في طوكيو وحدك؟

- أجل؟

- حقاً، لا بدّ أنّه أمر مزعج لك؟

- الحقيقة، إنه مزعج لي كما هو مزعج لكل الناس.

- وهل كنت، أنا، مثل كلّ الناس؟».

لم يرد يوزو على سؤالها.

«هل زوجتك بخير، أعني مثل كلّ الناس؟

- أعتقد ذلك.

- لم تصب بأذى؟

- لا.

- لحسن الحظ من ناحيتي، حدث لي ذات يوم، وأنا أسمع صفارات الإنذار أن سألت نفسي ماذا عساه يحدث لو أصابها مكروه وبقيت أنا وحدي متعافية. ذلك لأن المسألة مسألة مصادفة، أليس كذلك؟ مصادفة؟».

انتابت يوزو قشعريرة، ولكن فوجيكو أوضحت ما تريد قوله بنبرة متواضعة: «كنت قلقة في شأنها. ولماذا، أنا التي كنت أواجه أخطاراً لا توصف، على مثل هذا القلق في شأن زوجتك؟ كنت أرى أنني حمقاء، وإحساسي هذا لم يُبدّل شيئاً. كنت أردد لنفسي: بعد الحرب، حين يكون في استطاعتي أن ألتقي به، سأرغب أن أراه لا لشيء، فقط لأخبره عن هذه الفكرة التي لازمتني. وكنت أتساءل هل تصدقني أو سيراودك الشك...؟ ومع ذلك، صحيح أنني، خلال الحرب، نسيت هواجسي وصليت من أجل الآخرين».

هذا الكلام ذكر يوزو بما كان يشعر به هو أيضاً: إنّ أقصى حالات نكران الذات وأقصى حالات الأنانية تختلطان أحياناً في مزيج عجيب: من انتقاد الذات إلى الغرور، من الغيرة إلى هاجس المصالح الشخصية، من الترحاب والطيبة إلى الأذيّة، من الفتور إلى الهياج. وكان في استطاعة فوجيكو -وهي تأمل موت غريمتها الطارئ- أن تصلّي من أجل نجاتها. وهكذا تظلّ، فيما بعد، مفتونة بطيبة قلبها وغير واعية للجوانب المرذولة من طباعها. ولكن قد يكون علينا أن لا نرى في مثل هذا السلوك سوى وجهة من وجهات الحياة، سوى لحظة من حياة الكائن المعلّقة في زمن الحرب؟

كانت تبدو صادقة. والدموع تسيل من طرف عينيها الطويلتين الضيقتين. «كنت أحسب أنك تقلق لها أكثر مما تقلق لي. فلم أستطع إذن أن أكف عن القلق بدوري».

إنّ إصرارها على التحدث عن زوجته جعل أفكاره في مثل هذا المنحى ـ ولكن، حتّى لو كان القصد على هذا النحو فإنّ الشكوك لم تلبث أن عاودته من جديد. إنّ الارتباطات العائلية لا تثير مثل هذه الحماسة إلّا في زمن الحرب. حتّى يمكن أن يقال إنّ هذا الرجل كان عليه أن ينسى عشيقته لكي يحب زوجته، ولكنه حين يفعل، يصبح هذا الجزء من حياته على قدر كبير من الأهمية له. ولكن لحظة لقائه بفوجيكو حسب أنّه لاقى نفسه. وتذكر زوجته بعد جهد ـ كما لو عليه أن يجتاز فسحة منحلّة من الزمن. غير أنّه لشدة إحساسه بملال قلبه، كان يشعر أنّه يتصرف مثل حيوان تائه في صحبة أنثاه.

«عثرت عليك منذ وهلة فقط، لذلك لا أعرف ماذا عساني أسألك...» كان صوت فوجيكو وكأنه يلهث في أثرها ويكبّلها: «اسمعني، أرجوك!».

لم يقل شيئاً.

«اسمعني، أرجوك. امنحني ما أستطيع أن أحيا به، أرجوك!

- ماذا! ما يجعلك تحيين؟

- بعض الوقت، فقط لن أسبّب لك أي مشكلة، لن أزعجك».

أبدى يوزو امتعاضه بحركة لم يقصدها:

- «كيف تعيشين، الآن؟

- لا أستطيع أن أقول إنني لم أتوصل لتوفير غذائي. لا، ليس هذا. ولكنني أريد أن أبدأ حياة جديدة. أريد أن أبدأ من الصفر، وأن أنجح في الابتعاد عنك.

- الابتعاد؟ تقصدين: أن تعيدي العلاقة طبعاً!

- لا، لا أقصد أن أبدأ معك من جديد. أريد فقط أن تساعدني في تثبيت قدمي على أوّل السلّم. وسأرحل في وقت قريب، طبعاً. إنه أمر سيئ، هذا النمط من الحياة سيئ لي، ولكن دعني أتشبّث بشيء ما ولوقت قصير».

ما مدى الصدق في هذا الكلام؟ هذا ما لم يكن يعرف قوله. كان يشتمُّ رائحة الشرك الحاذق، استدرار شفقته، هل يعقل أن تكون هذه المرأة، التي هجرها إبان الحرب، تحاول، من خلاله، إيجاد الطريق لبداية حياة جديدة؟

لم يكن أمام يوزو إلّا أن يعترف بأن هذا اللقاء مع ماضيه أعاد إليه حس الحياة ـ ولكن أتراها حدست بنقطة ضعفه هذه؟ ولكن، لو كان هذا صحيحاً لكان طلبها بلا قيمة. كان يوزو يشعر في أعماقه بقوة استسلامه لها. وسرعان ما اكتأب قاتم المزاج، حين خطر له أنّه لن يلبث أن ينجو من تشتّته لكي يتابع حياته اللائقة. فأطرق واجماً.

سمع ضجيج تصفيق الحشد. كانت جوقة موسيقى جيوش الاحتلال تدخل وعلى أفرادها الخوذ الفولاذية. وصعد نحو عشرين عازفاً إلى المنصة بصمت.

عندما علت أصوات الأبواق النحاسية مجتمعة أحسّ يوزو أنّ صدره يضيق تحت وطأة انفعال مفاجئ. كانت الموسيقى الصادحة تسوط دمه وتكنس السحب عن عينيه وتنقذه من أحلام اليقظة التي تستغرقه. ورأى أنّ وجوه المحتشدين اكتست ملامح الحيوية. وبلغت دهشته ما لم تبلغه من قبل، أي بلد مرح، هذه الأميركا!

وهكذا بعد أن تنبهت حواسه بعنف استعاد يوزو ثقة الرجولة التي كانت تختصر كلّ شيء، حتّى علاقاته بهذه المرأة، فوجيكو.

ساعة عبرا معاً يوكوهاما كانت ظلال المساء؛ إذ تتصاعد من الأرض تبتلع الأخيلة الخفيفة والنحيلة. وتلاشت أخيراً رائحة الحروق التي تريّثت في الأنوف. حتّى المعالم المدمّرة للمدينة، هذه الأوعية المثالية للغبار، أذابتها نسائم الخريف.

خطر ليوزو وهو يتأمل في رموش فوجيكو السمراء المحمرة وفي شعرها الناعم أنّ الشتاء قريب. لم يستطع أن يتمالك ابتسامة مرارة حين فكر أنّه سيكون عليه في هذه المرحلة الخطرة من حياته كرجل، أن يضيف إلى ثقل مصاعبه الكثيرة حمل هذه المرأة: عبئاً على كتفيه. ولكن بما أنّ الفصول تتعاقب دائماً، حتّى على الأرض المحروقة، أحس يوزو بنوع من الدهشة الذاهلة والتي، في أعماقه، ستفتح له ميله العتيد لراحة البال.

لم يُصرّ يوزو كثيراً على التزام خطته الأصلية وكانت تقضي بأن ينزل في محطة شيناغاوا. فهو الذي تجاوز الأربعين بسنة أو اثنتين كان توصل إلى قناعة أنّ عذابات الحياة وأحزانها تجد انفراجاتها في مرور الزمن وأن العوائق والمصاعب تسقط ذات يوم من تلقائها. وفي حياته اختبر عدداً منها. وسواء غرق المرء في القلق والجنون أم واجه الأمور بصمت متأمل مكتوف اليدين لا يحرك ساكناً، فإنّ النتيجة واحدة. لقد وضعت الحرب أوزارها أخيراً! وربما أسرع بكثير مما كان يظن. ولكن أربع سنوات أهي مدة قصيرة لمثل تلك الحرب؟ أم مدة طويلة جداً؟ كان يصعب على يوزو أن يُقدّر بنفسه. ولكن، على أي حال، وضعت الحرب أوزارها وانتهى الأمر.

كان يود لو يغسل يديه مما أصاب فوجيكو. وأن يدع أمرها للزمن: ألم يهجرها في الحرب؟ ولعلّ لقاءه من جديد أيقظ فيه حقيقة نيّاته السابقة. كان الخلاف بينهما قد أدى إلى إحدى تلك العواصف التي تنهي حدّتها حياة الزوجين المشتركة. وكانت فكرة التوصل إلى قطع علاقته بها تجعله أحياناً يشعر بشيء من اللذة. وأحس، حين خطر له كلّ هذا، أنّ أنانيته الماكرة التي طالما وسمت طباعه تعاوده الآن. كان من الممكن أن تبدو حيرته أصدق من بهجته في رؤية هذا الحب وهو يتلاشى، ولكنّ مشاعره لا تزال غامضة.

«وصلنا إلى شيمباشي، نبهته فوجيكو

- هل أنت ذاهبة إلى محطة طوكيو؟

- أوه.. أجل».

لا بدّ أن فوجيكو تذكرت، حين سألها، عادتهما القديمة في النزول معاً على طريق الجينزا بعد خروجهما من المحطة. لم يتنزه يوزو في هذه الأرجاء منذ وقت طويل لأنه غالباً ما كان يستقل التراموای ليقطع هذه المسافة.

سألها بنبرة محايدة:

«إلى أين تذهبين؟

- من، أنا؟ أنا أتبعك. لماذا تسأل؟».

كانت ملامح القلق على وجه المرأة.

- «لا، أقصد أين تقيمين الآن؟.

- أين أقيم...؟ هناك مبالغة في قولك: أقيم.

- تعلمين، فيما يتعلق بي...

- الآن، أذهب حيثما تأخذني...

- إذن، أين تتناولين وجبات طعامك؟

- وجبات طعامي؟ لا أتناول منها الكثير.

- من أين تحصلين على حصصك الغذائية؟».

كانت فوجيكو تقرأ ملامح غضب يوزو، ولم تردّ على سؤاله. فساوره الشك أنها لا تريد أن تكشف له عن عنوانها. وحين تذكر أنها لزمت الصمت وهما يجتازان شيناغوا قال: «أنا أقيم في منزل أحد أصدقائي.

- إنها إقامة مشتركة؟

- إنها إقامة مشتركة داخل إقامة مشتركة. فقد استأجر غرفة فيها ستة أسرّة. ووجدت عنده مأوى مؤقتاً.

ألا يتسع المكان لشخص إضافي.. أعني هل أستطيع أن أقيم هناك، أنا أيضاً؟ إنّ قسمة الإيجار على ثلاثة أمر معقول، أليس كذلك؟». بدأت هذه المرأة تصبح مزعجة.

على رصيف محطة طوكيو تقف ست ممرضات من الصيب الأحمر عند حقائبهن. نظر يوزو في الاتجاهين ولم ير أي جندي مُسرَّح ينزل من القطار. أحياناً يرى على خط يوكوسوكا الذي اعتاد أن يستقله عدد من الجنود المسرّحين وقوفاً على الرصيف، وأحياناً يسافرون معه، على القطار نفسه. وفي أحيان كان يراهم أتوا مبكرين، ينتظرون جماعات على الرصيف الخالي.

لا شك لم يحدث أن شهد التاريخ هذا العدد من الجيوش المهزومة والتي خلفت أعداداً من جنودها بعيداً، فيما وراء البحار. كما لم يشهد بلداً يستسلم تاركاً هذا العدد من الناس لمصائرهم البائسة. فهناك كثيرون من الجنود العائدين من جزر بحار الجنوب يصلون إلى طوكيو في حالة بين سوء التغذية والخور الكامل. ولمجرد رؤية هذه التجمعات البائسة كان قلب يوزو يمتلئ بمرارة لا تفسير لها، لكن حسّه النقدي المتيقظ يساعده على فحص صادق للضمير فيشعر، كلّ مرة، كأنه يغتسل من التجربة ويبتعد عنها. وبعد أن ينهي حساب كلّ شيء بميزانه، يسأل نفسه ماذا عساه يفعل سوى أن يطأطئ رأسه حين يلتقي بهؤلاء الإخوة المهزومين؟ كان التعاطف مع هؤلاء المحاربين العائدين إلى الوطن يغمر كيانه، كما لو كانوا أنقياء حقاً، ومن جوهر يختلف عن جوهر جيرانه في الحي أو الجالسين قربه في الترامواي، في طوكيو.

إنّ هذا النقاء الذي كان يعتقد أنّه يراه في وجوههم لم يكن، ربما، سوى الصبر في المرض الطويل. كان هؤلاء الرجال مهزومين من التعب والجوع والإحباط. واختفت من هذه

القسمات المتربة، من هذه العيون المقعرة، وهذه الخدود الناتئة أية قدرة على التعبير - لقد كانت تبدو عليهم علامات الإنهاك.

ولكن، ربما لم يكن الأمر على مثل هذا التعقيد. وربما كان هذا الإنهاك أقل بكثير مما يراه الأغراب، وقد تكون الأهواء العنيفة ما زالت تعصف بقلوبهم. هؤلاء الرجال الذين أكلوا مما لا يأكله الإنسان، هؤلاء الذين قاموا بأعمال لا يقوم بها الإنسان - لا بدّ أنّ ثمة عرق نقاء في دماء هؤلاء الجنود الذين شقّوا لهم طريقاً لكي يتاح لهم أن يصلوا إلى وطنهم(1).

إنه محمل، هذا الذي تحيط به الممرضات، وعليه جندي ممدد على إسمنت الرصيف. كاد يوزو وهو يمر جواره أن يطأ رأسه بقدمه، لكنه تجنبه في اللحظة الأخيرة. حتّى على وجه هذا المريض كان الصفاء يرتسم: كان يُحدّق، دون أن يبدو عليه أي أثر للحقد، في أرتال الجنود الأميركيين يصعدون إلى القطار أو ينزلون منه.

في إحدى المرات، سمع يوزو مذهولاً، عبارة بالإنكليزية قيلت بصوت خفيض: Very Pure (نقي جداً) وحين فكر في ما سمعه قال لنفسه إنها لا بدّ أن تكون: Very Poor (فقير جداً).

بدت له الممرضات الواقفات إلى جانب المحاربين العائدين إلى الوطن أجمل مما كان يراهن خلال الحرب، ولكن ربما ذلك بسبب التناقض بين ما هنّ عليه وما يحيط بهن؟

نزل يوزو درجات الرصيف، ثمّ توجه تلقائياً إلى بوابة الخروج التي تطل على ياوزو، ولكنه، إذ رأى حشداً من الكوريين ينتظرون في الرواق، عاد أدراجه كما لو خطرت له فكرة مغايرة: «لنخرج من الباب الأمامي. في العادة أخرج دائماً من الباب الخلفي وكنت أهمُّ بذلك اليوم أيضاً».

كان غالباً يجد هنا كوريين ينتظرون القطار الذي سيعيدهم إلى بلادهم. بدل أن يتحملوا مشقة الانتظار في الصفوف الطويلة في ردهة المحطة، كانوا يجلسون عند درجات الرصيف، بعضهم قرفصاء وبعضهم بطوله ممدداً على أمتعته أو على خرق أو بطانيات بالية

على الأرض. وفي بالاتهم الموضوعة هنا وهناك، المحزمة بحبال قش، تستطيع أن ترى طناجر وأوعية تتدلى منها. وغالباً ما يجدون أنفسهم مجبرين على الانتظار طوال الليل. ومن بينهم عائلات بأكملها، وكثير من الأولاد الذين يشبهون الأولاد اليابانيين. وطبعاً قد تصادف عدداً من النساء اليابانيات المتزوجات كوريين. ومن وقت لآخر في المعمعة طيف ثوب أبيض جديد، أو طيف سترة زهرية. فهؤلاء الذين ينتظرون ساعة رحيلهم إلى بلادهم المستقلة حديثاً كانوا يبدون كزمرة من اللاجئين البائسين وليس كفئة من شعب محرر، وكان بعضهم وكأنه في عداد آخر الناجين من كارثة.

من ناحية بوابة ياوزو لاحظ يوزو وجود عدد آخر من صفوف الانتظار: إنهم يابانيون يحاولون الحصول على تذاكر سفر. كان يصادف هذه الصفوف، كما هي، تتشكل في الليل، تحسباً لفتح شباك التذاكر في الصباح. بعضهم يقعد في الزوايا وبعضهم كان ينام في مكانه. أمّا آخر الوافدين ففي استطاعتهم أن يستندوا إلى حافة الجسر. وكانت حقائب الفناء؛ من أقصاه إلى أقصاه، مزروعة بالبراز، لأن الزوايا تستخدم كمراحيض للاجئين في هذا المكان. كان يوزو يمر بهذا المكان في رحلاته إلى الضاحية. وفي الأيام الممطرة يفضّل أن يلتف على طريقه اليومي فيسلك في محاذاة خطوط التراموای.

حين خطر له هذا المشهد اليومي سار في اتجاه بوابة الخروج الكبيرة. فتناهت زقزقات خفيفة من ناحية أشجار الساحة. وكان غروب الشمس الشاحب يغطي مبنى ماروندشي ببقعتين من الضوء الساطع. أمام المحطة لفتهما فتاة في السادسة أو السابعة عشرة، تقف هناك، متسخة المظهر، في يد تحمل زجاجة صمغ وفي يد قلماً قصيراً، كانت ترتدي قميصاً ضيقاً رثاً، لونه برتقالي يميل إلى الاحمرار، وكمّاه رماديان. وفي قدميها نعلان خشبيان للرجال، وكأنها متشردة، أو شحاذة، تتحرش بجنود أميركيين وتنادي عليهم وتحاول التشبّث بثيابهم دون أن يلتفت أحدهم إليها. وكان بعض الرجال الذين تمس أطراف ثيابهم يحدجونها بنظرة تعجّب، ويتابعون طريقهم ساهمين دون التفات. وكان يوزو يخشى أن يلتصق هذا السائل اللاصق على بنطال أحد العسكريين.

في النهاية، ابتعدت الفتاة مرتعدة، وهي تجرجر قدميها، إحدى كتفيها أعلى من الأخرى، وكأن نعليها الفضفاضين يعيقان مشيتها. اجتازت الساحة واختفت عند المحطة المعتمة.

أدارت فوجيكو رأسها لتتابعها بنظراتها:

«إنه أمر فظيع، أليس كذلك؟

- إنها مجنونة. حسبت، في البداية، إنها متسولة.

- في مثل هذه الأيام حين أرى مشهداً مثل هذا أخاف أن يكون مصيري مماثلاً وتنتابني رعشة.. والآن منذ التقيت بك لا يساورني القلق. كم أنا سعيدة لأنني لم أمت في الحرب. ببقائي على قيد الحياة استطعت أن أراك من جديد.

- ينبغي أن نرى الأمور بهذه الطريقة. أذكر أنني بعد الزلزال الكبير علقت تحت الركام في بيت في كانوا. كنت عالقاً تحت أحد أعمدة الأساس وكدتُ أموت.

- أجل، أعرف، وما زلت تحمل أثر جرح في الورك الأيمن، أخبرتني ذات يوم.

- كنت تلميذاً. ولكن، طبعاً، لم تكن اليابان أصبحت مجرم حرب وتمثل أمام محكمة العالم. فالزلزال ليس سوى كارثة طبيعية.

- أسأل نفسي هل ولدت في الزلزال الكبير؟

- بالطبع!

- كنت أحيا في الريف. لم أكن أعرف شيئاً. إذا كان لا بدّ لي من الإنجاب فأنا أؤثر الانتظار ريثما تعود البلاد إلى الحياة..

- هيا، هيا، أنت نفسك كنت تقولينها منذ قليل: الإنسان لا يكون أقوى ما في استطاعته إلّا في النار. لم أواجه في الحرب مصاعب أكبر مما واجهت في فترة الزلزال، أعني أنّ الأخطار والمصاعب كانت أكثر وأكبر في لحظة واحدة من الكارثة. في أيامنا هذه الأطفال يحيون في روحية المزيد من الحرية. فمنذ الطفولة يواجهون قدراً أقل من العوائق.

- حقاً؟ بعد انفصالنا كنت أفكر أحياناً أنك إذا لا بدّ لك أن تذهب إلى الحرب فأنا أحب أن أنجب طفلاً منك. ولكن أن أكون هكذا، على قيد الحياة في جوارك... هذا إذا أردت...».

اقتربت منه ووقفت، أصبحا متلاصقين كتفها تلامس كتفه.

«ما نسميه طفلاً طبيعياً، قال، أي شرعيّ المولد، أعتقد أنّه لم يبق موجوداً؟

- آه؟».

تجهّم يوزو، وبدا أنّه أخطأ خطوة وشعر بدوار خفيف. لم يحسب أنّ فوجيكو يستحيل أن تكون صادقة. غير أنّه لاحظ منذ لقائهما في كماكورا أنهما لم يتبادلا سوى عبارات قاسية وجافة ومليئة بالتلميحات. وهذا ما دفعه للتكفير ملياً وأرعبه.

كان يرتاب في أنّ المرأة الشابة تبحث عن منفعتها. ولم يكن هذا الانطباع غائباً عن كلامها الواثق. ولكنها أيضاً كانت تثير انطباعاً لديه بأنها تستسلم بلا نيات مبيّتة كما لو لم تستيقظ بعد من ذهولها.

أمّا الآن مذ التقيا فهو يشعر أنّ الأرض تتلاشى تحت قدميه. هاجسه الواقعي أن يحافظ على ذاته كان لا يزال قوياً لديه، مشفوعاً بخوفه من التورط في هذه العلاقة من جديد، أحس بذلك منذ أن رآها ولكن، برغم ذلك، كانت نيّاته تخرج قليلاً من مضمار الواقعية.

كان بعيداً عن عائلته التي عمل على جلائها عن المدينة، تائهاً في الشوارع حيث سقطت كلّ الضوابط والمعايير -ذلك أنها كانت مرحلة حرية بلا وازع- لذلك استعاد، بلا أدنى مقاومة،

علاقته بفوجيكو. إذ بدا أنّ ميلاً لا يقاوم يجذبه إليها كأنه مقيد أو مسحور. وكان على عتبة مرحلة خرج منها لما لهجت نفسه بالتضحية بالذات في أتون الحرب حتّى الثمالة. التضحية بذاته، وبحقيقته. ولا يزال، حتّى الآن، في غمرة افتتانه باستعادة ذاته، بعد لقائه المرأة الشابة في معبد هاشيمان، يحس بوطأة مزاج تشوبه سموم غامضة تقلقه. انتابه إحساس بالقهر الضاغط. ولم يكن هذا ليحول دون إحساسه بأنّ القدر الذي جمعه وامرأة ما قبل الحرب، والقصاص الذي يتهدده لأنه عاد وأثقل كاهليه بحمل الماضي، كلّ هذا تحول إلى إحساس بالتعاطف معها.

عندما وصل إلى خطوط التراموای، أبدى بعض التردد: هل يسلك الطريق في اتجاه حديقة هيبيا؟ في اتجاه جينزا؟ بدا له أنّ الحديقة أقرب، فاتجه نحو المدخل وحين رأى مقدار الفوضى السائدة هناك، استدار إلى الاتجاه الآخر. وكان الليل حين وصلا إلى جينزا.

لم يستطع يوزو أن يقترح عليها الذهاب إلى مسكنها لأنها كانت أصرت على إخفاء عنوانها. وقد لا تكون تحيا منفردة حيث تقيم. كانت تبدي شيئاً من الحياء وهذا لم يمنعهما من مواصلة طريقها وكانت تتبعه دون أي إصرار على معرفة وجهتهما. حتّى أنها كانت تخفي خوفها من الشوارع المقفرة والمعتمة التي دمرها القصف. وكان يوزو بدأ ينفد صبره.

في استطاعتهما أن يمضيا ليلتهما في أحد منازل تسوكوجي، ويوزو لم يكن يعرف هذا الحي جيداً. وكانا يسيران على غير هدى نحو مسرح كابوكي. فجأة دخل يوزو، دون أي إشارة مسبقة، في ممر صغير باحثاً عن زاوية بعيدة عن أنظار الفضوليين من المارّة. فهرعت فوجيكو خلفه. «انتظريني هنا، دقيقة واحدة - لا، أنا خائفة!» كانت تقف ملتصقة به حتّى خطر له أن يدفعها بمرفقه بعيداً عنه.

كانت بلاطات الآجر واللبن تطقطق تحت قدميه وهو يتقدم بحذرٍ في اتجاه جدار، وسرعان ما أدرك أنّ هذا الجدار كان لا يزال واقفاً مثل ورق البارافان، منتصباً في وسط ركام المبنى الذي دمره الحريق.

صدم يوزو لمّا رآه. كانت العتمة ثقيلة على حافة الجدار العليا، المنخورة من جوانبها، وكأنها أنياب الليل المتوعدة أو أثر حريق متقيح يشربها.

«أنا... ذات مرة أردت أن أهرب، أن أعود إلى الريف. وفي ليلة مماثلة، في محطة أوينو... لاحظت وأنا أمرّر يدي على ثوبي أنّه كان مبللاً. قالت فوجيكو وهي تحبس أنفاسها. خلفي كان يقف رجل غريب لطّخ لي ثوبي!

- طبعاً! لا بدّ أنكما كنتما ملتصقين عن قرب...

- لا، أبداً! أصبت بقشعريرة... وغادرت الصف. الرجال مخيفون. كيف استطاع أن يفعل ذلك في مثل تلك اللحظة؟ آه، أنا خائفة». وجلست فوجيكو القرفصاء في جواره وهي تضم كتفيها.

- «لا بدّ أنّه مريض.

- أحد المنكوبين. كان يمسك بيده وثيقة تفيد بأن منزله احترق. كان يستعد لمغادرة طوكيو».

استدار يوزو وهمّ بالرحيل، وواصلت فوجيكو كلامها بلا أي رغبة في النهوض: «كان الصف يمتد خارج المحطة، إلى مكان يسوده الليل المعتم و...

- هيا، لنغادر!

- آه! المشكلة أنني لا أقوى على ذلك! إذا تابعنا على هذا المنوال فسوف أدفن نفسي وأغوص في هذه الأرضية المظلمة. لقد خرجت منذ الصباح...».

بدا له أنها أغمضت عينيها. فخفض يوزو، الذي مكث واقفاً، وجهه نحوها وفكر أنّها ربما لم تأكل بعد، واكتفى بالقول: «يبدو أنهم بدؤوا بترميم البيوت هنا.

- حقاً؟ من جهتي، أنا أخاف. ولن أستطيع أن أحيا في مكان مماثل.

- قد يكون هناك من يسكنها الآن؟

- أنا خائفة! أنا خائفة جداً!» قالت فوجيكو. ثمّ نهضت وتشبثت بذراع الرجل. «إنه أمر فظيع! أنت تخيفني!

- ليس هناك ما يدعو للخوف. بعد الزلزال، رأيت أناساً يلتقون في مواعيدهم الغرامية في أكواخ شبيهة بالتي ترينها هناك... ولكن أتخيّل كم يكون الأمر كئيباً.

- كئيب! آه، بالضبط! تستطيع أن تقول هذا!».

برغم كلّ شيء لم يكن يوزو يشعر بنفور من فوجيكو أو يبعدها عنه. تحت تأثير الإحساس بالدفء، والحميمية المكتومة، والاسترخاء البريء الذي كان يسري كالمهدئ في ذهوله الغامض، كان يوزو يحس بأن الغضب الذي يلي كلّ حرمان من الأنوثة، وكل اكتشاف جديد للمرأة، أقرب إلى الإحساس بالشفاء بعد مرض طويل.

كانت كتف فوجيكو، النحيلة الناتئة العظام، لا تضغط كتفه إلّا بثقل تعب شديد. ولكنه، برغم ذلك، كان يرى في هذا الثقل معنى التلاقي مع المرأة نفسها.

قفزت يوزو عن كومة الحصى وتوجهت نحو الأكواخ. كانت بلا نوافذ. وعندما اقترب، سمع ألواح خشب تتكسر تحت قدميه.

١٩٤٦

(1) يشير المؤلف هنا إلى ظروف الحياة الفظيعة التي عاناها الجنود الذين خلّفتهم القيادة خلف خطوط الدفاع البعيدة بعد الهزيمة. (م. ف.).

مرثاة

كم هي مؤلمة عادة البشر هذه في استدعاء ذكرى الموتى! ولكن قد يكون أكثر إيلاماً اعتقادهم بأن الكائن يظلّ على قيد الحياة بحفاظه، في عالم مقبل، على هيئة كانت له في عالم سابق!

قد يكون الإحساس بالتطابق بين أقدار النباتات وأقدار البشر هو الموضوع الأبدي لكل مرثاة؛ هذا ما كان يردده فيلسوف لا يحضرني اسمه الآن. حفظت هذه العبارة غيباً ونسيت السياق الذي قيلت فيه. أليس قدر الورود أن تزهر ثمّ تذبل؟

وهل علينا أن نبحث لها عن معنى أكثر عمقاً؟ هذا ما لا أستطيع أن أقوله.

لقد بدا لي منذ وقت ليس بالبعيد أنّ نصوص البوذية المقدّسة هي أناشيد رثائية، فيمنحني الأمر إحساساً بالدعة لا يوصف. وهكذا حين أستحضر ذكراك، أنت الميت، أؤثر ألف مرة أن ألتفت إلى شجيرة الخوخ القرمزية، المزدانة أغصانها بالأزاهير والماثلة أمامي على رفّ الحائط الداخلي للردهة، بدل أن أضفي عليك، في عالمك الآخر، ملامحك التي كانت لك في عالمنا هذا. ولكن لماذا الشجيرة القريبة ذات الاسم الأليف، وليست أي زهرة مجهولة في بلد غريب؟ سوف تمثّل في عيني انبعاثك وتجسدك. وسوف أحدّثها كما كنت أحدثك وأخبرها كم أحبك وما زلت.

حين أقول هذا تتملكني الرغبة في استحضار بلاد بعيدة، ولا أرى شيئاً، ولا أحس سوى برائحة الحجرة حيث أجلس الآن.

رائحة ميتة، أُسِرّ إلى نفسي، ولكنّ الأمر يضحكني.

لقد كنت تلك الصبية التي لم تتعطر أبداً.

أتذكر ذلك؟

وذات ليلة، منذ أربع سنوات، وكنت أغتسل اجتاحتني رائحة حادّة. ودون أن أتمكن من تحديدها قلت في سري إنّ من غير اللائق أن أتنشق مثل هذا العطر القوي وأنا عارية. وانتابتني، عندها، غشاوة، وأغمي عليّ. وفي تلك اللحظة بالذات، كنت أنت في فندق تضمخ فراش ليلتك الأبيض بالعطور. كانت ليلة زفافك. تزوجت دون أن تعلمني، بعد أن هجرتني. وكنت تلك اللحظة أجهل كلّ شيء عن زفافك وعلمت فيما بعد، فقط، أنّ الأمر كان في تلك اللحظات بالذات.

هل صدف وخطر لك أثناء ذلك أن تطلب مني الصفح؟

أو ربما حدّثت نفسك بأنني كان من الممكن أن أكون أنا نفسي العروس؟

إنّ العطور التي تأتينا من الغرب تذكّر بالعالم بقوة.

هذا المساء، جاءت خمس أو ست من صديقاتي لقضاء السهرة عندي ولنلعب لعبة لوتو القصائد. لم يكن الوقت مناسباً لمثل هذه اللعبة، وإذا كنا في شهر كانون الثاني فنحن أصبحنا بعيدين عن الأيام الثلاثة الأولى من السنة الجديدة. أولئك النساء، جميعهن، كنّ متزوجات ولهن أولاد. فعمد أبي إلى إشعال أعواد البخور الصيني كي لا يثقل أنفاسنا هواء الحجرة المقفلة. فالبخور يرطب هواء الحجرة ولكن الأمر لم يجعل السهرة حيوية أكثر، ذلك أنّ كلّ واحدة منا كانت غارقة في ذكرياتها الأنانية الخاصة.

لا شك أنّ الإصرار على عدم النسيان جميل. وإذا اجتمعت أربعون أو خمسون امرأة في مباراة للذكريات وإذا كانت صالة اجتماعهن مسقوفة بخيمة بلاستيكية، كان للروائح الكريهة التي ستتصاعد من هذا الاجتماع أن تقضي على كلّ الورود المزهرة. ليس لأنهن اقترفن المساوئ، بل لأن الماضي أكثر حيوانية من المستقبل كما نتخيّله.

هذه الأفكار المستهجنة تذكرني بأمي.

كان هذا في لعبة ورق حين وصفتني الزائرات ولأول مرة بأنني طفل نجيب. كنت، آنذاك، في الرابعة أو الخامسة من عمري. ولم أكن أعرف بعد علامات الكتابة. وفي غمرة الحماسة التي تثيرها اللعبة كانت أمي، ولا أدري لماذا، تنظر إليّ؟

«أنت تفهمين إذن؟ تاتسو، يا صغيرتي، أنت تراقبيننا دائماً كفتاة عاقلة!». ثمّ أردفت قائلة وهي تداعب شعري: «أتريدين أن تختاري ورقة؟». كنت طفلة بريئة. سحبت النساء أيديهن الممدودة على الطاولة وأخذن يحدقن بي.

قلت بسذاجة، بسذاجة كاملة: «هذه الورقة يا أمي».

كنت أنظر إليها وإصبعي على الورقة التي اخترتها، بيد أصغر من حجم الورقة.

«انظرن!» قالت أمي التي بادرت إلى دهشتها، وحين رأت اللاعبات كذلك في دهشتهن بصوت واحد، قالت إنها مجرد صدفة لأن الطفلة لم تتعلم القراءة. ولكن ما حدث كان كافياً لإثارة عجبهن، ولم تلبث المدعوات أن تخلّين عن التفكير في الأمر ربما لإرضاء أمي.

«هل أنت جاهزة يا صغيرتي؟». سألت القارئة التي أخذت تقرأ القصيدة على مهل، لثلاث مرات أو أربع تواليا، لي أنا، وحدي. ومن جديد نجحت في اختيار الورقة المناسبة، وأعدت الكرة، وكل مرة كنت أوفق في الاختيار: دون أن أفهم كلمة واحدة مما تقوله هذه النصوص، ودون أن أحفظ أياً منها أو أن أجيد قراءة حرف واحد منها، كنت أقع على الورقة المناسبة ما أن أشير بعفوية إليها. وكنت أشعر بلذة غامرة حين أحسُّ بيد أمي تداعب شعري.

لقد أكسبتني هذه التجربة سمعة حسنة، وكم مرة كنا، أمي وأنا، نعاود مشهد التبادل العاطفي هذا أمام صديقات أمي أو أمام زوار من معارفها. إذ لم يقتصر الأمر على اختيار الأوراق المناسبة، بل كانت مواهبي الخارقة تتعدى ذلك إلى ميادين أخرى كثيرة.

الآن، أجيد القراءة، بل أحفظ قصائد اللعبة المئة، ولكنني هذا المساء لم أنجح في العثور على الأوراق المناسبة بالسهولة التي كنت أعثر عليها في طفولتي، عندما كانت يدي تمتد إليها دون أن أفكر.

أمّا أمي... تلك الأم التي كانت تجبرني على إظهاري علامات ذلك الحب الكبير، فتبدو لي الآن كريهة، وتشبه بعض الشيء العطور الغربية.

لقد هجرتني، يا حبّي، ولعل السبب فيض البراهين على حبنا التي كانت تغمرنا. فمنذ أن أحسست تلك الليلة في الحمّام، بعيداً عن الفندق حيث كنت تقيم وامرأة أخرى، بعطر ليلة زفافك، بدا لي أنّ باباً أوصد في وجهي.

منذ وفاتك لم أر وجهك ولو مرة واحدة.

لم أسمع صوتك ولو مرة واحدة.

ومرسال روحي كسر جناحيه.

ذلك أنني لا أريد أن أطير إلى عالم الموت حيث تقيم.

طبعاً، لأجلك، أتخلى عن حياتي بلا ندم.

لو استطعت أن أولد من جديد في هيئة زهرة لؤلؤية لاقتفيت خطاك، فعندما أخذني الضحك بعد أن قلت لنفسي إنني أتنشق رائحة ميتة، إنما فعلت بغير وعي. لم أتنشق عطراً صينياً إلّا في الجنازات وشعائر دفن الموتى. وهذا ما ذكّرني بأسطورتين حول العطور قرأتهما في كتابين كنت ابتعتهما لتوّي.

الأولى من «كتاب يويما» تقول إنه في بلاد «كلّ العطور»، يستطيع حكماء يقتعدون ظل أشجار ذات رائحة، أن يعرفوا الحقيقة وهم يشمّون - على الأقل، حقيقة هذا العطر، وحقيقة أخرى لعطر آخر، وهكذا.

يظن الفاني من العوام، حين يتناول بحثاً في المادة الفيزيائية، أنّ الخلاصة التي يتوصل إليها مفادها أنّ العطور والموسيقى والألوان هي بطبيعتها، متشابهة الجوهر، وأن الفوارق بينها ليست إلّا في حاسّة الإنسان. أمّا العلماء فابتكروا هذه الحكاية الظريفة إنّ قوة النفس والقوة الكهربائية أو المغناطيسية هي من نوع واحد.

ذات مرة، كان، رجل يستخدم حماماً زاجلاً كمرسال غرامي. كان هذا الرجل يسافر كثيراً. وأينما حطّ واستقر كانت الحمامة تعود إلى المرأة التي يحبها. كيف ذلك؟ كان العشاق يفسرونه بقوة الهوى التي تتضمنها الرسائل وكان يربطها بقوائم الطير.

وحدّث البعض عن هرّ رأى روحاً. فالحيوانات غالباً ذات بصيرة أشد نفاداً من بصيرتنا في كشف المصير. كنت لا أزال طفلة، ففقد أبي كلبه، كان يصطاد في جبال إيزو، (أعتقد أنني رويت لكم هذه الحادثة في موضع آخر). ولم يلبث هذا الحيوان أن عاد إلى المنزل بعد ثمانية أيام نحيلاً ومتهالكاً، لم يكن يأكل إلّا من يد سيده. أي قوة جعلته يعود من إيزو إلى طوكيو معتمداً على وسائله الخاصة؟

والحقيقة أنّ الإنسان يتلقى الكشف عبر الروائح المتنوّعة، أليست سوى أسطورة جميلة ورمزية؟.

في نظر حكماء بلاد «كلّ العطور» كانت الروائح خبز القلب، ولكن أهل بلاد الروح، كانوا يرون ذلك في الألوان. فالملازم ريمون لودج، آخر أحفاد أحد النبلاء ويدعى السير أوليفر لودج، تطوّع في الجيش الإنكليزي عام ١٩١٤ ونقل إلى فرقة لانكشاير الجنوبية، وأرسل إلى الحدود، فقتل في ١٤ أيلول ١٩١٥ في الهجوم الذي شنته الفرقة على هضبة «فويشي». وكان ريمون لودج، الذي قتل، توصل، بعيد ذلك، أن يبث، عبر وسيطين هما السيدة رينولدز وهارفي بيترز، عدداً من الإشارات والمعلومات حول موضوعات متنوعة من عالم الأرواح. وقام والده السير أوليفر لودج بنشرها في كتاب ضخم. أمّا «الروح الحالّة» التي تملكت السيدة رينولدز (كما يقول الوسطاء الروحيون في اصطلاحهم الإنكليزي الغريب) فقد

كانت لصبية هندية شابة اسمها «سيتا»، فيما تملكت بيترز روح زاهد إيطالي اسمه «موستوني».

ذات مرة توصل ريمون الذي يقيم في الحلقة الثالثة من بلاد الروح إلى ولوج الحلقة الخامسة. ورأى هناك معبداً كبيراً بدا له من العاج الخالص الأبيض تضيئه حزم من الأشعة الملونة، قرمزية عند الأطراف وزرقاء برتقالية في الوسط، وكلها تتدرج بين الألوان بفروقات طفيفة. ولاحظ «هذا الشخص» هكذا كانت سيتا تسمي ريمون - وهو يبحث عن سبب هذا التوهج، عدداً من النوافذ المزيّنة بواجهات زجاجية ذات ألوان ناعمة. وكانت الكائنات الماثلة في ذلك المكان يقف بعضها في النور المصفّى بزجاج قرمزي وبعضها في النور البرتقالي أو الأصفر. وعندما تساءل «هذا الشخص» عن حقيقة الأمر انكشفت أمام بصيرته الحقائق التالية: إنّ النور الزهري هو نور الحب، أمّا النور الأزرق فهو الذي يشفي القلب حقاً، فيما النور البرتقالي هو نور الحكمة. وكل واحد من الكائنات يتجه على هدي نوره بحسب رغباته، وإذا ما صدقنا دليل ريمون، وجد الكائن بهذه الطريقة معرفة جوهرية لا يقترب منها أهل الأرض (...).

لا شك أنّ كلّ هذا يبدو لك مما يثير الضحك. لكننا، برغم ذلك، كنا زيّنّا حجرة حبنا الفاني بمؤثرات ضوئية. وعلماء النفس أنفسهم يهتمون بدراسة تأثير الألوان على الكائنات.

إنّ أسطورة ريمون حول العطور ليست أقل صبيانية.

عندما تذبل وردة ها هنا، يصعد عطرها إلى السماء. فتتفتح الوردة هناك في الأعالي. كلّ مادة بلاد الروح تتكوّن من عطور تتصاعد من الأرض. وإذا ما تأمّل واحدنا جيداً أدرك أنّ كلّ شيء، أنّ كلّ كائن تصدر عنه، في موته وتعفنه، رائحة خاصة: رائحة الأكاسيا تختلف عن رائحة القصب، ورائحة القنّب المتعفن تختلف عن رائحة الشرشف المتحلل.

أمّا النفوس فهي لا تنعتق فجأة من الجثث (كما يدّعي البعض، على قول الرومان، بأنها تنعتق من الكتلة النارية لأرواح الموتى)! بل هي تشكل نوعاً من الخيط تكون الرائحة

نسجته ويصعد إلى السماء ليشكل هنالك الجسم الروحاني للميت وعلى صورة جسمه الفاني الذي غادره. فالإنسان إذن يمتلك، في الأعالي، نفس الهيئة التي كانت له على الأرض. ووجد ريمون أنّ له الرموش والبصمات، بل أكثر، وجد بعض أسنانه التالفة استبدلت بها أسنان معافاة بيضاء.

العميان لهم عيون تبصر، والعرج سيقان صحيحة. ويجد المرء هناك جياداً وهررة وعصافير مثلما هنا على الأرض، وكذلك البيوت القرميد، حتّى (وهنا المضحك) السيكار والوسكي والصودا المكوّنة من جواهر عطرها على الأرض. الأطفال الموتى يكبرون في مملكة الروح؛ والتقى ريمون هناك بشقيقه الذي غادرهم وهو لا يزال طفلاً، ورأى أنه أصبح رجلاً بالغاً، وكان لا يعرف سوى القليل من شؤون الأرض. هذه الوجوه الروحانية البالغة الجمال -وأفكر خاصة في وجه تلك الصبية التي تدعى ليلي والتي ترتدي ملاءة من النور وتحمل زنابق في يدها- ليتساءل واحدنا معها كيف يمكن للشاعر أن ينشد قصائد في كلّ هذا.

إلى جانب «الكوميديا الإلهية» للشاعر الكبير دانتي، «وسماء الجحيم» للروحاني الكبير سويدنبرغ، تبدو «رسائل العالم الروحاني» مجرّد لعبة أطفال، وهذا ما يسمح لنا أن نقاربه بابتسامة وكأنه مجرد حكاية. ففي هذه الوثيقة البالغة التطويل، أفضل من جهتي، المقاطع الخرافية على الأخرى العقلانية. والسير أوليفر لودج لم يكن مقتنعاً بوصف العالم الآخر الذي اقترحه الوسيطان. وحين رأى أنّ هذا الكتاب يشهد على خلود النفس، أراد أن يجعل منه هدية لمئات الآلاف من الأمهات والعاشقات اللواتي فقدن كائنات عزيزة في الحرب. ومنذ ذلك أصبحت المؤلفات من هذا النوع لا تُحصى، ولكن لا واحد من الكتب التي استطعت أن أقرأها يتحدث عن الحياة الأبدية بمثل الصدق الذي كان من ريمون. وأنا التي بقيت على قيد الحياة من بعدك أبحث عن عزاء أنتقي منه أسطورة أو أسطورتين. فهل كان اختياري على هذه الدرجة من السوء؟.

إنها حقاً رؤية لصيقة بالمادة تلك التي تلازم وصف الغرب للعالم الآخر، حتّى لو كان الرائي سويدنبرغ أو دانتي، أو على الأقل هذا ما يراه من تملأ النصوص البوذية رؤياه بالبوذا (في

صيغة الجمع). ويجب أن أعترف حتّى في الشرق، أنّ كونفوشيوس يستبعد فكرة العالم الآخر أو الآخرة بقوله: «أنا أجهل كلّ شيء عن الحياة فكيف أعلم شيئاً عن الموت؟». ولكنني أرى، فيما يعنيني، في رؤى العالم السابق والعالم المقبل كما تصفه البوذية أكثر المراثي عزاءً وأشدها وقعاً على النفوس.

يروي لنا ريمون بهجته وانفعاله عندما التقى بالمسيح، ولكن و«الروح الحالّة» للوسيط، السيدة رينولدز، كانت صبية هندية فكيف لم يستطع ريمون أن يرى في حلقات مملكة الروح وجه «شاكيا موني» الكلّي القداسة؟ وكيف لم يثر، ولو بإشارة، المفهوم البوذي للآخرة؟

* * *

يشفق ريمون على بعض النفوس التي تخبره عن عودتها، ليلة الميلاد، إلى بيوتها على الأرض، حيث يعتقد الأهل أنّ الأرواح فسدت مع الأجساد. ولكنني الآن أفكر! منذ وفاتك لم أستقبل روحك، ولو مرة واحدة، في عيد الموتى. واعلم أنّهم يقولون عن الموتى إنهم يحيون في الشعائر التي يقيمها لهم الأحياء. هل تعاني أنت أيضاً هذه الحقيقة؟

أحب أيضاً بعض النصوص البوذية ككتاب عيد الموتى الذي يعالج حياة المحترم فيشيرين. «السنجي» الذي يروي حكاية «دوهي»، الحكيم الذي استطاع أن يجعل الهيكل العظمي لوالده يرقص بالقوة التي استقاها من قراءة النصوص المقدسة (السوترا). وحكاية الفيل الأبيض، أحد أوّل تجسدات «شاكيا موني»، وطقس عيد الأرواح حيث يأخذ المحتفلون، على طرف فتيل قطني، شعلة من النار يعيدونها فيما بعد على مركب صغير يحمل مصباحاً. يا لها من لعبة أطفال ممتعة!.

أمّا نحن اليابانيين فلا نهمل أي إله. حتّى لنقدّم أضحيات للبوذا التائهين الذين لا يقيمون أية صلة بالبشر. ونتلو صلواتنا أمام أكثر الأشياء ضعة، كدبابيس الخياطة التي نكرمها مرة

في السنة!

برغم ذلك يبقى، لي، نص «ايكيو» الأجمل بين النصوص كلها. وايكيو راهب «زن» والنص حول عيد الأرواح. كان الحكيم ينشد في ذكره لقاوون وباذنجان ياماشيرو الج:

«إنه عيد الأرواح العظيم! إنّ قاوون هذا الحصاد روح! وروح هو الباذنجان، وروح هي مياه كاموا! روح هو الدرّاق والكاكي! الموتى روح، الأحياء روح! كلّ هذه الأرواح تتحد وتقيم عميقاً في خواء القلب والفكر أُمجّد البوذا وأسبّحه!».

وهذا هو الشرح الذي يقترحه المحترم ماتسو:

«عيد وحدة الأرواح! ففي هذا المعتقد ليس للكون البوذي سوى قلب واحد. كلّ الكون البوذي ليس سوى قلب واحد. فيكون هذا القلب، الفريد، الكون كله! وفي هذا العيد كلّ شيء يصبح بوذا: الشجر والعشب والبلاد والتراب...».

أمّا كتاب «شين شي كان» (رؤيا أعماق القلب)، فهو يبشر بأن كلّ الأحياء المأخوذين بدورة التجسّدات الجديدة، يولدون من جديد ويموتون خلال مئة ألف قرن من الزمن، وهم تواليا آباء وأمهات في زمن ومكان محددين.

لهذا السبب، كلّ رجال العالم هم آباء يزخرون بالطيبة، وكل نساء العالم أمهات من الألم (كما في الكتاب حرفياً)، ولكن كتب فيه أيضاً أنّ المرء يدين لوالده بمعرفة الرحمة، وللأم بمعرفة الألم.

إنّ ترجمة الألم بالحزن أمر سطحي وساذج فعلى حسب العقيدة البوذية أنّ أجر الأم يزن أضعاف ما للأب من أفضال.

تذكر جيداً ساعة وفاة والدتي، أليس بلى؟ وكم دهشت عندما سألتني فجأة هل كنت أفكر فيها؟.

هدأ المطر، وانقشعت السماء كما لو أنّ المياه كلها امتصَّت. وتحت الضوء الشفيف، لبداية ذلك الصيف، كان العالم يبدو شاغراً. ومن الجنينة، أمام النافذة، كان يتصاعد الضباب الخفيف. كنت جالسة على ركبتيك، أتأمل غيضة متنوعة النبات تبدو متفردة بوضوح كما لو أعيد رسم خطوطها للتو، فرأيت طيف تلوين خفيف عند زاويتها. وأخذت أسائل نفسي هل كانت أشعة الشمس هي التي تنعكس على الضباب؟. وكانت والدتي تتقدم نحوي.

ذلك الوقت كنت أحيا معك برغم ممانعة أهلي. ولم أكن أشعر بأي إحساس بالخجل، ولكن رغم ذلك، وجدتني، تحت وطأة المفاجأة، أغيّر من جلستي، وأنهض قليلاً. كانت أمي تضغط بيدها اليسرى رقبتها كما لو تريد أن تعلمني بأمرٍ ما. وفجأة تلاشى خيالها.

عندها أرخيت جسمي كله، وجلست بثقلي على ركبتيك. فسألتني:

«أتفكرين في أمك؟

- حقاً، هل رأيتها أنت أيضاً؟

- رأيتها؟

- في هذه اللحظة، هناك!

- أين؟

- هناك.

- لا، لم أر شيئاً، وماذا كانت تفعل؟.

- لقد ماتت، وجاءت لتخبرني بذلك».

عدت، على الفور، إلى بيت والدي. لم تكن جثة والدتي نقلت بعد من المستشفى. وبما أنني قطعت كلّ صلة بوالدي، كنت أجهل ماذا أصابها: سرطان اللسان. وربما لهذا السبب حين بدت لي رأيتها تضع يدها على حنجرتها. لحظة ظهورها عليّ كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة.

حتّى للأم، التي بدت لي في غمرة التعاطف والإشفاق، لم تراودني الرغبة يوماً أن أقيم مذبح صلاة في عيد الأرواح، كما لم أود أن أسمعها تحدثني عن العالم الآخر. أؤثر أن أتوجه، عبر استعارة وسيط، إلى شجرة من هذا الدغل، وأن أعتبرها أمي.

يعلمنا البوذا أن نتحرر من قانون التناسخ لندخل في مطلق النيرفانا. والنفس التي لا يزال عليها أن تهيم في دورة الولادات الجديدة ليست في الحقيقة سوى نفس ضالة... أحسب أنّ ما من أسطورة منسوجة من الأحلام أغنى من عقيدة التناسخ. أليست هي أجمل قصيدة رثاء ابتكرها الإنسان على الإطلاق؟ يرقى هذا المذهب إلى عصر الفيدا في بلاد الهند. إذن ينبغي أن يكون، في الأصل، لب الشرق نفسه. ولا يمنع أن تكون هناك أساطير محببة عن الورود في الميثولوجيا الإغريقية، ونشيد مارغريت السجينة لغوته. ففي الغرب أيضاً يبدو أن الشخصيات التي بعثت على هيئة حيوان أو نبات يفوق عددها عدد النجوم.

ولطالما أبدى حكماء الماضي وروحانيو الحاضر، أولئك الذين يتأملون في حقيقة النفس البشرية، احتقاراً واضحاً للحيوانات والنباتات واحترامهم البالغ للإنسان. فنحن لا نوفر جهداً، وبكل الوسائل والاتجاهات، في سبيل إدراك تميّزنا بين عشرة آلاف كائن طبيعي هم كائنات الكون. مسعى باطل وأناني... أليس هو سبب كآبة النفس البشرية؟

قد يأتي يوم ويسير الإنسان القهقرى على الطريق التي كان اجتازها حتّى اليوم.

أستضحكون وأنتم تخمّنون أنّ هذا الكلام لا يصدر إلّا عن نزعة حلولية سحيقة القدم، حلولية الشعوب البدائية؟

ولكنكم تعلمون جيداً، أنّه كلما تقدّم العلماء في بحثهم لمعرفة أصل المادة أدركوا بصورة أفضل أنّ العنصر الابتدائي يكمن في كلّ الخليقة، وأن رائحة الكائن التي نفقد شكلها الأرضي الفاني تشكل مادة الآخرة - إنها خرافة، ولكنها ترمز إلى حقيقة علمية، إنّ طاقة المادة لا تنضب. هذا ما أدركته خلال النصف الأوّل من حياتي، أنا، المرأة الشابة التي لا تمتلك أكثر من ذكاء سطحي. فهل يعني هذا أن نفترض أنّ قوة النفس وحدها هي التي تنضب؟ ولماذا لا تكون هذه الكلمة: النفس، مجرد نعت للطاقة التي تسيل من كلّ مخلوقات السماء والأرض؟

قد يُعبِّرُ مفهوم خلود النفس عن حب البشر للحياة، وحبهم لموتاهم، ولكننا، بفعل عادة كئيبة وواهنة نظل نؤمن بأننا نحافظ، في العالم الآخر، على شخصيتنا التي كانت لنا على الأرض وأننا نحمل معنا إلى هناك، في الأعالي، كلّ مشاعر الحب والحقد التي نعرفها. ويستطيع الموت أن يفرّق بين الأهل وأولادهم ولكنهم يظلّون أهلاً وأولاداً! والأشقاء يحيون كأشقاء في العالم الآخر! إذ يبدو أنّ معظم أرواح الموتى في الغرب، تصف آخرة هي على صورة مجتمعنا... آه! كم أرى مما يدعو للحزن أن نجد مثل هذا التشبث المستميت بحياة لا تحترم سوى الإنسان!

بدل أن أسكن في عالم الأشباح الشاحب هذا، أودُّ، بعد موتي، أن أصبح حمامة بيضاء، أو سويقة زهرة الشقّار. فمثل هذا الفهم يتيح لنا أن نغذّي، في حياتنا على الأرض، عواطف أغنى وأعم وعلى قدر أكبر من الحرية بما لا يقاس!

في العصور السحيقة كان الفيثاغوريون، مثلاً، يؤمنون بأن شعلة أرواح الأشرار ينبغي أن تظل أسيرة أبدان من ذوات الأربع أو أبدان عصافير، تكفيراً عن كلّ ذنوبهم.

في اليوم الثالث، وكان الدم لم يجف بعد على الصليب، صعد يسوع المسيح إلى السماء. اختفى جسد الرب: «خاطب الملاك المرأتين قال: «أنتما، لا تخافا. أعلم أنكما تطلبان يسوع المصلوب، فهو ليس هنا، قام مثلما قال: تعاليا وانظرا المكان الذي كان مُضّجعاً فيه، واهرعا

إلى تلاميذه، وقولا لهم إنّه قد قام من بين الأموات، وها هو يتقدمكم إلى الجليل، وهناك ترونه، ها أنا قد قلت لكما»». (متى، ٢٨: ٥ و٦ و٧).

حين التقى ريمون يسوع المسيح في السماء. كان يرتدي ثياباً من نور، مثل الملاك الذي ظهر، ومثل كلّ المقيمين في بلاد الروح. ملابس النفس تنسج في القلوب: أي إنّ حياة الإنسان الروحانية تشكل لبوس النفس بعد الموت. وفي مثل القول الرثائي تكمن أمثولة منتقاة من قواعد حياة المجتمع. إنّ سماء ريمون تشتمل على سبع دوائر، تماماً كالآخرة البوذية: ترتقي النفس من دائرة إلى أخرى أعلى منها كلما تقدّمت في طريق الكمال. إنّ مذهب التقمص البوذي يبدو انعكاساً لأخلاقيات هذا العالم. فإذا بعثت النفس، بعد أن تكون تقمصت حدأة، مثلاً، شكل إنسان، ثمّ شكل فراشة، أو شكل بوذا في حياة أخرى، تكون تمت لها «الكارما»، أي لعبة التبعات الحتمية لحركة النفس في مسار تجسداتها.

يا لها من فسحة تعاطف في قصيدة رثاء!

إنّ نشيد البعث، في «كتاب الموت»، الفرعوني القديم، على سذاجة أكثر. إنّ ملابس إيريس، في الميثولوجيا الإغريقية، تشع بنور أسطع. والتقمص لسويقة شقائق النعمان يعد بمباهج أخرى.

في الميثولوجيا الإغريقية، نرى القمر والنجوم، الحيوان والنبات، كلها في مرتبة الآلهة - آلهة تبكي وتضحك، تحت وطأة المشاعر المماثلة لمشاعر الإنسان. ألا يوحي هذا بالطراوة كما لو أنت ترقص عارياً على أديم من العشب تحت سماء صافية؟

ثمّ إنّ هذه الآلهة تلعب لعبة التخبئة وتتحول إلى عشب وورود.

حورية الغابة الجميلة تصبح فكرة لتختبئ من نظرات الغرام التي يرمقها بها شاب ليس زوجها.

دافنيه تتحول إلى شجرة غار لتتجنب آبولون العابث وتحافظ على عذريتها.

أدونيس، الصبي الجميل، يبعث في هيئة زهرة شقّار لمواساة فينوس، حبيبته التي فجعت بموته (...).

لذلك، ألا يجوز أن أفكر أنّ شجرة الخوخ هي أنت، وأن أكلمها؟

غريب: «استيلاد النيلوفر في حمأة النار يخلق الإلهام في لهيب الأهواء الغرامية».

بعد أن هجرتني، أنا من اخترق قلب الوردة، شهدت التماع الإلهام في غمرة الأهواء.

لا أحد يعلم متى تولّه إله الرياح بحوريّة جميلة، ولا كيف وصل الخبر إلى مسامع «فلور»، زوجة «زيفير»، وهذه مذ جُنَّت من الغيرة، طردت الحورية البريئة من قصرها، فهامت المسكينة أياماً في البراري تبكي. في المآسي الكبيرة أليس من الأفضل أن يكون واحدنا وردة صغيرة؟ ويحيا كوردة صغيرة حتّى نهاية العالم؟ وأن يتلقّى نعم الأرض والسماء بقلب نباتي ساذج؟ هذا هو الوحي الذي حلّ على الحورية.

بدل أن أكون ربّة بائسة، كم أودّ أن لا أكون سوى وردة صغيرة! وبعد أن تلفظت بهذه الأمنية، انشرح قلب الحورية المسكينة، لأول مرة.

كنت، ليلاً نهاراً، يتآكلني الحقد عليك لأنك هجرتني، والغيرة من آياكو لأنها خطفتك مني! وكم مرّة ردّدت لنفسي أنني قد أكون أكثر سعادة لو أنني، مثل الحورية المسكينة أتحوّل إلى وردة صغيرة بدل أن أبقى على حالي: امرأة يائسة.

غريبة دموع البشر... غريبة، أقول. وكلامي هذا المساء ألا يبدو لك غريباً، كلامي؟ ومع ذلك، إذا فكرت في الأم ملياً وجدتني إنما أعبّر عن أمنيات وأحلام لمليارات البشر ومنذ آلاف السنين. امرأة، ولدت في هذا العالم مثل قصيدة غنائية مثل دمعة...

عندما كنت حبيبي -أنت يا حبيبي- كانت دموعي تنهمر على وجنتيَّ في الصباح عندما أستيقظ.

وحين أصبحتُ أنام في جوارك ما عدت أحلم بك.

ومنذ افترقنا، أحلم تقريباً كلّ ليلة أنني أنام بين ذراعيك. كم هو حزين نهوضي الصباحي، وكم كان ندمي عميقاً، في الليل وأنا في جوارك، كم كان سعيداً وكم كنت أبكي...

إذا كان صحيحاً ما يقال إنّ القلب يبقى في عالم الأرواح، بفضل رائحة الأشياء ولونها، فكيف يعجب الناس من أن حب امرأة يصبح عصب حياتها؟ عندما كنت معي كنت في أي تصرّف من تصرفاتي كلّ انطلاقة المرأة السعيدة: شراء علبة صمغ من المخزن أو قطع كعكة في المطبخ... إلخ.

لما فقدتك أصبحت الورود وألوانها والعصافير وأغنياتها تافهة بلا طعم. انكسر كلّ رابط يربط قلبي بالسماء والأرض وبكل الكائنات وكان مصابي بفقد الحب أكبر بكثير من فقداني لحبيبي.

ولكن وأنا أقرأ، ذات يوم، نشيد بعث رثائي، أحسست بإلهام ما. استعدت نعمة أن أحبك من جديد، بدون حساب، أنت والسماء والأرض وكل شيء.

أنا مدينة لكآبات الحب الإنساني المبالغ في إنسانيته.

كم أحببتك!

والآن، من جديد، كما لو كلّ منا يخفي حبه عن الآخر ولا يعترف به، أتأمّل شجيرة الخوخ ببراعمها المنتفخة، وأود؛ في استغراق لاهب، أن تجد نفسي الأشبه بتيار لا مرئي، سبيلاً إليك، أنت الميت، والذي تقيم لا أعلم أين...

عندما رأيت ظل أمي، لم أقل شيئاً، ولكنك سألتني، أنت بطيبتك؛ عن المرض الذي تعانيه.

كنا أصبحنا جسداً واحداً، نحيا في يقين ثابت أنّ أية قوة، مهما بلغت، لن تفرّق بيننا. وبثقة، غادرتك لأشارك في مراسم دفنها. وكتبت لك رسالة لأول مرة بعد فراقنا وأنا خلف طاولة

الزينة بمرآتها المثلثة التي كنت تركتها في بيت والدي.

«إنّ أبي، الكسير القلب منذ وفاة والدتي، يمنحنا رضاه. وأعطاني ثوب حداد، ولا شك أنّ في هذا علامة على المصالحة. إني أتجهز للاحتفال الجنائزي. وإنني جميلة حقاً، برغم تعبي، وأنا في هذا الكيمونو لأول مرة منذ عودتي إلى المنزل. أود أن أريك وجهي كما يبدو لي في المرآة. أكتب لك بعد التملّص من بعض المشاغل. هذا اللون الأسود جميل ولا ريب، ولكنني سأطلب أن يشتروا لي كيمونو ملوناً لحفلة زفافي. كم أستعجل موعد عودتي إليك! ولكنني بعد أن هجرت أهلي، كما تعلم، أرى في وجودي هنا الآن فرصة أن أنال غفرانهم. سأنتظر، إذن، ذكرى اليوم الخامس والثلاثين. لا بدّ أن تكون آياكو مقيمة عندك. اطلب منها، أرجوك، أن تهتم بك. أخي يساندني أكثر من أي شخص آخر. إنه شاب، لكنه يدافع عني في وجه كلّ أهلي. يا له من صبي لطيف!

وعند عودتي سأحمل معي طاولة الزينة هذه!».

مساء اليوم التالي وصلتني رسالتك:

«لا بدّ أنّ السهرات تتعبك. اهتمي بصحتك. آياكو تعتني بي».

«لقد حدثتني مرة عن طاولة زينة قدمها لك، في الماضي، رفيق فرنسي من مدرسة الراهبات لأنه كان على وشك العودة إلى بلاده. وكنت تقولين لي إنّه الشيء الذي تأسفين لفقدانه أكثر من أي شيء. أظنك وجدته كما كان قبل أن تغادري، حتّى ولو جفّت دوارق الزينة في الدرج.

برغم المسافة بيننا، يتراءى أمام عيني جمال قوامك في الثوب الأسود الذي تعكس المرآة صورته. أود لو ألبسك ثوب زفاف جميلاً في أقرب فرصة. أستطيع أن أوصي عليه من هنا، ولكنك لو طلبت ذلك بلطف من والدك لأحس بالسعادة لتلبية طلبك. لا يذهبنّ بك الظنّ إلى

أنني أحاول أن أستغلّ حزنه، لكنني أعتقد أنّه سيمنحنا رضاه لأنه يشعر بأن قلبه مكسور. وشقيقك الذي كنت أنقذت حياته في الماضي ماذا حل به؟».

لم تكن رسالتي جواباً على رسالتك، وكذلك الأمر لك. كلّ واحد منا، كتب من ناحيته، الكلام نفسه وفي الساعة نفسها. ومثل هذا لم يكن نادر الحدوث فيما بيننا.

علامة أخرى على حبنا: الثقة التي أوليتني إياها حتّى قبل أن نحيا معاً في بيت واحد: «ما دامت تاتسو موجودة، أنا واثق من أنّه لن يحدث أي سوء غير مرتقب. إنني مطمئن البال!». هذا ما كنت تقوله في معظم الأحيان. ورددته أيضاً عندما أخبرتك كيف حدست أن أخي قد يعرض نفسه للغرق.

كنت أغسل المايو بمياه بئر الفيلا التي كنا استأجرناها لقضاء عطلة الصيف. وفجأة حدست بصراخ أخي الصغير واستغاثاته، كانت يده ترتفع من الأمواج، شراع مركب، والسماء العاصفة تجعل البحر هائجاً. رفعت رأسي، كان الطقس جميلاً. ولكنني هرعت إلى المنزل: «أمي، إنّ أخي في خطر شديد!».

امتقع وجه أمي وهرعت نحو الشاطئ وهي تجرّني من يدي. كان أخي، وله ثمانية أعوام، يتهيأ لرحلة على مركب شراعي في رفقة تلميذين أعرفهما وصبي يكبرهما سناً وهو وحده يُجيد قيادة المركب. كانوا يأملون الإبحار منذ الصباح طلباً للطراوة على بضعة أميال من هنا في محاذاة الشاطئ. وهيؤوا لرحلتهم مطرة وسندويشات وبطيخة صفراء.

وحدث في العودة أنّ المركب واجه موجة عاتية ولم يلبث أن مال في شكل مخيف. استطاع الصبية الثلاثة أن يقاوموا الموج عائمين بالصاري الذي انكسر. وعندما وصل إليهم قارب النجاة كانوا ابتلعوا قدراً لا بأس به من المياه ولكنهم كانوا في حالة جيدة. ولو كان أخي معهم، من يستطيع أن يعلم ماذا حل بهم وهم مجرد تلاميذ ولا يرافقهم سوى فتى كبير واحد؟

هرعت أمي نحو الشاطئ لأنها صدّقت حدسي.

بعد أن طارت شهرتي بفضل سهرات لعب الورق أراد مدير المدرسة الابتدائية أن يراني فرافقتني أمي لمقابلته. لم أكن أرتاد المدرسة بعد، كنت لا أكاد أعد حتّى المئة ولا أجيد قراءة الأرقام العربية، ولكنني بارعة في مسائل الضرب والقسمة. وكنت أجد بسهولة الأجوبة المطلوبة لمسائل حسابية تقليدية حيث ينبغي أن نعرف حاصل جمع قوائم السلحفاة مع قوائم الكركي. كان الأمر مثالاً للبساطة: كنت أكتفي بإعطاء العدد المطلوب بدون عناء أو جهد. كما استطعت أن أُجيب إجابات صحيحة عن الأسئلة البسيطة في التاريخ والجغرافيا. ولكن مواهبي هذه لم تكن تظهر إلّا في حضور أمي.

كان لمدير المدرسة إعجابه بي. ولم يكفّ وهو يسمعني، عن ضرب وركيه بكفيه تفاخراً. وأمي تخبره أنّه حين يضيع شيء في البيت يكفي أن نطلب من هذه الطفلة أن تبحث عنه فتجده فوراً.

«حقاً!» قال المدير وهو يفتح كتاباً على الطاولة أمامه وسألني أن أقترب منه وقال: «مع ذلك لا أعتقد أنها تستطيع أن تقول رقم هذه الصفحة!».

ومرة أخرى لفظت رقماً - وكان الصحيح. فأشار الرجل بإصبعه إلى أحد سطور الصفحة ونظر إليّ قائلاً: «هل تستطيعين أن تخبرينا ما هو مكتوب هنا؟

- مسبحة الزجاج. زهرة الوستارية يهطل الثلج على زهر البرقوقة. الطفل الجميل يأكل الفراولة.

- غير معقول! هذا مدهش حقاً! يا لها من طفلة شاطرة، يا لها من نظرات ثاقبة وشفافة! وما هو عنوان هذا الكتاب؟».

حنيت رأسي للحظة وقلت له: «إنه الكتاب المفضل لساي شوغانون!».

كنت قرأت: «مسبحة الزجاج. زهرة الوستارية. يهطل الثلج على زهر البرقوقة. الطفل الجميل يأكل الفراولة!». ولم تكن سوى قراءة طفولية ومغلوطة للنص الذي يقول:

«المسبحة الوردية من بلّور صخري.

ثلج يغطي أزهار الوستارية وشجيرة البرقوق.

طفل رائع الجمال يأكل الفراولة».

وما زلت أذكر دهشة معلم المدرسة ومدى تفاخر أمي بي.

في تلك الحقبة كنت غالباً ما أجد متعتي إضافة إلى تسميع جدول الضرب، في التنبؤ على حسب المناسبة، بالطقس الممطر أو بالصحو، بعدد الجراء التي ستضعها الكلبة وعدد الذكور منها وعدد الإناث، بأسماء زوار النهار، بموعد عودة والدي إلى البيت، وملامح وجه خادمتنا الجديدة، وأحياناً ساعة وفاة أحد أقربائنا المرضى. والجيران لا يبخلون عليّ بفيض من المدائح، وذلك يسحرني ويجعلني أكثر تفاخراً. إلّا أنّني، في أعماقي، أستغرق في لعبة التنبؤات هذه دون أن أتخلى عن براءتي الطفولية.

بدا لي أنني كنت أفقد ملكة التنبؤ شيئاً فشيئاً كلما تقدمت في السن وأفقد شيئاً من براءتي. فهل تخلى عني الملاك الذي كان يسكن قلبي؟

والأغرب أنّه كان يزورني أحياناً في أعوام مراهقتي.

بعد ذلك كسر جناحيه -وأظنني أخبرتك- وكان في اليوم الذي شممت فيه عطر فراشك الزوجي.

أي تذكار لي من الرسالة التي حدثتك فيها عن الثلج، أغرب رسالة كتبتها في النصف الأوّل من عمري ـ وأنا شابة... أي تذكار؟ لم أعد أقوى على ذلك:

«لقد تساقط الثلج بغزارة على طوكيو، أليس كذلك؟ أمام مدخل بيتك يشد كلب الحراسة الألماني على سلسلته كما لو يريد أن يقلب حجرته الخشبية الخضراء. ينبح بشدة خلف عجوز يكنس الثلج. ولو تصرّف بهذه الطريقة معي لما كنت أتجرأ على اجتياز الباب حتّى ولو كنت قادمة من مكانٍ بعيد. هذا العجوز المسكين! طفل مربوط بحمالة على ظهره يجهش، وها أنت تخرج من المنزل وتشرع في مواساة الطفل الصغير وتتساءل كيف لهذا العجوز الرث الحال أن يكون أباً لمثل هذا الطفل الظريف المليء بالحيوية. ولكن صدقني، هذا الرجل أصغر بكثير مما يبدو. إنها قسوة الحياة تجعله هرماً على هذا النحو. وكانت خادمتك تكنس الثلوج المتراكمة، أليس كذلك؟ وهذا المتشرد اقترب منها وأخذ يشكو لها، حاني الرأس خجلاً: «لا أحد يريد أن أعمل عنده لأنني عجوز وضعيف وأحمل طفلاً على ظهري. أرجوك، لم أستطع اليوم أن أعطيه وجبة الحليب حتّى الآن...». تتوجه المرأة إلى الصالة حيث تجلس أنت لتسألك عما عساها تفعل. أنت تستمع إلى أسطوانة لشوبان. وعلى الجدار المقابل لوحات معلقة ومتقاربة: مائية لكوغاهارو ورشمية لهيروشيجي -الثلج في كيزو- وفي جانب الصالة الآخر حصير هندي من القماش وعليه رسمة عصفور الفردوس. والكرسي، تحت مسانده البيضاء مغطى بالجلد الأخضر. وعلى جانبي جهاز التدفئة، المطلي، هو أيضاً بالأبيض، تقبع تماثيل زينة تمثل حيوان الكونغورو. وألبوم صور على الطاولة: «رقص اليونان القديمة» لإيزادورا دانكن. وعلى رف، في الزاوية، أقمار قرنفل تذبل منذ عيد الميلاد ولا نرميها رغم أننا تجاوزنا رأس السنة. لا بدّ أن تكون هدية من امرأة جميلة أمّا ستائر النافذة... ولكن مخيلتي تسترسل وصفاً لصالتك التي لم أرها في حياتي».

علمت من صحف اليوم التالي أنّ البارحة، يوم أحد، لم تهطل الثلوج على الإطلاق، بل على العكس من ذلك، كان اليوم جميلاً وعذباً، فضحكت كثيراً.

والحجرة التي لم تظهر لي في رؤيا أو في حلم، بل جاء وصفها، وأنا أكتب، عبر رصف الكلمات بعضها إلى بعض وليدة أهواء القلم.

غادرت المنزل العائلي وأنا مصممة أن أكون لك. وفي رحلتي في القطار كان الثلج يهطل غزيراً فوق طوكيو.

الرسالة التي كتبت فيها عن الثلج كانت من ابتكار خيالي، ولكنني، حين دخلت ورأيت صالتك، أنا التي لم يسبق لها حتّى أن لمست يدك، وجدتني أرتمي في أحضانك. وكنت كمن لا يصحو من وقع المفاجأة!

«أجل، لقد نقلت حجرة الكلب ووضعتها خلف المنزل فور استلامي رسالتك.

- ثمّ عملت على توضيب الصالة لتصبح كما وصفتها لك في الرسالة!

- أنت لست جادة فيما تقولين! إنها هكذا منذ وقت طويل. ولم أبدّل فيها شيئاً.

- معقول؟

- عدت وتفحصت الصالة.

«إنه لغريب حقاً أن تجدي الأمر غريباً. كم كانت دهشتي كبيرة حين قرأت رسالتك، وعندئذٍ أدركت مدى حبك لي. وفكرت أنك لشدة ما تسكنين، بالروح بيتي استطاعت روحك أن تعرفه جيداً. وبما أنّ الروح زارتني كثيراً لماذا لا يفعل الجسد؟ لذلك كانت لي الشجاعة والثقة لأن أكتب لك وأطلب منك أن تأتي للإقامة معي حتّى ولو كان الثمن أن تهجري أهلك. على كلّ حال، أنت نفسك رويت لي مرة أنك حلمت بي من قبل أن نلتقي لأول مرة. أليس قدرنا أن نلتقي؟

- كان قلبي، في أية حال، يحيا بوصالك!».

علامة أخرى: العجوز الذي وصفته لك جاء ليكنس الثلج في اليوم التالي.

كنت أذهب، كلّ مساء، لصحبتك في طريق عودتك من قسم الأبحاث الجامعية. كانت أوقات انصرافك غير منتظمة. وكان في استطاعتك أن تسلك طريقين مختلفين حين تخرج من محطة قطار الضواحي، فتجتاز الحي التجاري أو تحاذي غابة مقفرة. ولكننا، كنا دائماً نتلاقى.

كنا نهمّ دائماً بقول نفس العبارات. أينما كنت، ومهما كنت أفعل، حين تبحث عني كنت أجيء حتّى قبل أن تنادي عليّ.

كنت أحضر لك الطعام الذي تشعر، في مكتبك، أنك تحب أن تتناوله اليوم.

هل كانت علامات الحب كثيرة بيننا؟ وما بقي لنا هو أن نفترق؟

ذات مرة، وأنا أصحب آياكو إلى الباب قلت لها فجأة إنني قلقة لذهابها ورجوتها أن تمكث بعض الوقت. وفي مضي ربع ساعة بالكاد وجدتها تنزف دماً غزيراً من أنفها. وأنت تعلم كم يكون مزعجاً أن يصاب المرء بمثل هذا الطارئ وهو في الشارع! هل كان مصدر هذا الحس الداخلي، حدسي، منذ البداية، بأنك مُتيَّم، بتلك المرأة؟

كنا متحابين بصورة لا توصف! لقد نالني الحدس المسبق بحتمية حبنا، أفلا نالني الحدس المسبق بزفافك وآياكو، وبموتك!

لماذا لم تشأ روحك أن تعلمني بموتك؟

كنت حلمت بلقاء شاب في طريق محاذية لشاطئ جميل وكانت الأغصان المورقة والغار المبرعم ظلالاً على المياه الراكدة. يافطة خشبية كانت تشير إلى الطريق ودخان كثيف يتصاعد من قلب الغابة المجاورة. كنت بزة الشاب تدل على أنّه طيار في قفازين من جلد، ورموشه مرسومة بدقة، وطرفا فمه ينخفضان قليلاً حين يضحك.

رافقته بعض الوقت وقلبي يمتلئ حباً ـ ثمّ تلاشى الحلم.

عندما استيقظت تساءلت هل سأقترن بضابط طيار؟. وكنت أحرص أن أحفظ هذا الحلم، طويلاً، في ذاكرتي وكذلك هروب اسم المركب البخاري الذي كان يرسو قرب الشاطئ: «دايغو ميدو ريمارو». بعد عامين أو ثلاثة التقيت بك. في مكان يشبه المكان الذي حلمت به. كنت ذلك الصباح في منتجع صحي، في صحبة عمي الذي أرافقه لأول مرة. ولم يكد نظرك يقع علي حتّى بدت علامات الارتياح على وجهك.

فسألتني: «من أين طريق العودة إلى المدينة؟» وكنت تتكلم كأنك تشعر بجاذب قوي نحوي. والدم يصعد إلى وجهي خجلاً، أشحت بوجهي نحو البحر ورأيت مركباً وعلى مقدمه اسم: «دايغو ميدو ريمارو». وأخذت أسير وأنا أرتعش بصمت. وكنت تتبعني.

«هل أنت عائدة إلى المدينة؟ هلّا أشرت علي بدكان لبيع الدراجات الهوائية أو مشغل تصليح؟ قد أبدو لك وقحاً بعض الشيء ولكن كما ترين أنا أسافر على دراجة نارية. وصادفت عربة يجرها حصان أجفله صوت المحرك فقلب العربة، وفي محاولتي لتجنب الحادث اصطدمت بصخرة وتعطّلت دراجتي».

ولم نكد نسير معاً مسافة مئتي متر حتّى تآلفنا. وقلت لك:

«يبدو لي أننا التقينا من قبل!

- وأنا أسائل نفسي لماذا لم ألتق بك حتّى الآن. انطباعان متشابهان أليس كذلك؟».

ثمّ كنت كلما رأيتك في ذلك المنتجع وناديتك في سرٍّ قلبي كنت تلتفت مهما كانت المسافة التي تفصلك عني.

وأينما ذهبنا معاً أشعر أنني أعرف المكان الذي نكون فيه.

ومهما فعلنا معاً كنت أشعر أنني سبق لي أن فعلته من قبل.

أعزف نوطة «لا» على البيانو، يصدح الكمان بنوطة «لا» جواباً. الأمس إحدى شعبتي معيار النغم ديابازون ترتجّ الثانية جواباً. ولا شك في أنّ الأمر مماثل لروحين متّصلتين. ومع ذلك، لم ألتقط الإشارة التي تعلمني بموتك. فهل أصيب بثّاث روحك ولاقط روحي بخطب ما؟

أو أكون، على العكس، أغلقت باب قلبي لخشيتي عليكما، أنت وزوجتك، من قدرة روحي التي تحررت من عراقيل الزمان والمكان؟

فعلى مثال القديس فرنسيس الأسيزي تنزف الفتيات التقيّات دماً من طرف الصدر وهن يتأملن المصلوب وكأن حربة في أبدانهن. والناس، كلّ الناس، يسمعون كلّ يوم عن أرواح أحياء أو أموات لها القدرة على القتل لمجرد إطلاقها لقوة لعناتها.

عند سماعي بخبر موتك انتابتني قشعريرة من الخوف، وأحسست بطغيان رغبتي أن أصبح وردة برية. إنّ جوقة جنود الروح، التي تشمل نفوس الفانين والمقيمين في الآخرة، تحارب أنماط تفكير أولئك الذين فرّق بينهم الموت أو فرّقت بينهم الحياة. ترمي بجسد يجمع شملهم وتلغى الكآبة التي ينثرها الموت في هذا العالم. هذا ما يؤكده الروحانيون.

أمّا أنا فبدل أن أتلقّى شهادات الحب من بلاد الروح، وبدل أن أحيا، بعدك، عاشقة في المطهر أو في الحياة المستقبلية، أفضل أن أصبح، معك، زهرة برقوق قرمزية أو وردة غار. وعندها تأتي الفراشات التي تدخر غبار الطلع وتجمعنا.

ولا أعود أشعر برغبة في استحضار الموتى وفق عادة الأحياء المحزنة.

١٩٣٢

القمر في المياه

ذات يوم خطر للمرأة الشابة أن ترفع مرآتها الصغيرة ليستطيع زوجها، وهو لا يزال طريح الفراش في غرفة من الطابق الأول، أن يرى من خلالها قسماً من جنينة الفاكهة. وكان هذا كافياً لأن تنفتح حياة جديدة في عيني المقعد وتتخذ أبعاداً لم تخطر لها على بال.

كانت المرآة من جهاز عرسها في صندوق متواضع من خشب التوت الذي صنع منه إطار المرآة أيضاً. وكانت تذكّرها دائماً بذاك الضيق تحس به في بداية زواجهما، عندما كانت تستخدم المرآة لترى انعكاس رقبتها على الأوجه المصقولة المثلثة. وكمّها ينزلق عندئذ ويعري ذراعها فوق المرفق.

«كم أنت خرقاء يا كيوكو! هاتي، سوف أحملها لك».

وعندما تخرج من الحمام كان زوجها في متعة كبيرة برؤية انعكاس الرقبة الملساء على المرآة الكبيرة عبر أوجه المرآة الصغيرة. أيكون ذلك لأننا نرى الأشياء ذات حلّة جديدة حين تنعكس صورتها لأول مرة في المرآة؟ في الحقيقة لم تكن كيوكو خرقاء، كانت تشعر بضيق فظيع عندما ترى زوجها وهو يتأملها من الخلف.

لم يتسن لخشب التوت أن يبهت في الدرج.

جاءت الحرب: وكان إجلاؤهم عن المنزل ثم مرض الرجل. وعندما خطر للمرأة أن تريه الجنينة في المرآة كان زجاجها المصقول باهتاً وإطارها الخشبي ملطخاً بالبودرة والغبار. لم تهتم كيوكو. يكفي أنها كانت تعكس الصور بوضوح. ومنذ ذلك الحين احتفظ المعوق المقعد بالمرآة في متناول يده، وكان في أوقات ضجره يعمل على مسح زجاجها بعناية ومسح الغبار عن إطارها الخشبي، بحركة عصبية هي ما يميز حركات المرضى الكبار.

وغالباً كانت كيوكو تفكّر إذ تراه ينفث بخار أنفاسه على صفحتها لاختبار نقائها -برغم زوال كل البقع عنها- إن جراثيم السل تتغلغل في شقوق الإطار غير المرئية.

حين تسرّح له شعره كانت تصب عليه قليلاً من زيت الكاميليا، ويمرر كفيه على رأسه ليعود ويلمّع بهما خشب المرآة الصغيرة وكان خشب صندوق الجهاز يظل باهتاً.

لقد احتفظت بالصندوق نفسه حين تزوجت للمرة الثانية، إلا أنها وضعت المرآة الصغيرة في النعش لتحترق معه وفق الشعائر الدينية. واستبدلتها بمرآة أخرى مزخرفة برسوم تنتمي إلى فن الكاماكورا، دون أن تخبر زوجها الثاني أي شيء.

بعد أن ضُمَّت يدا الميت وشبكت أصابعهما على حسب التقاليد، لم تستطع أن تجعلهما تمسكان بالمرآة حين سُجّي الجثمان في النعش.

«لقد سبب لك صدرك آلاماً مبرحة! وها هو الآن ينوء تحت ثقل جديد»، قالت المرأة في سرها. في البداية وضعتها على أعلى الصدر لذكرى الدور المهم الذي لعبته هذه المرآة في حياتها المشتركة ولكنها عادت وأنزلتها نحو البطن وغطتها بأزهار الأقحوان البيضاء لتخفيها قدر الإمكان عن أنظار أهله وأصهاره فلم ينتبه أحد. وحين جمع الرفات، كان الزجاج المصهور كتلة غير متناسقة من الرمادي الباهت.

قال أحدهم: «انظروا إنه زجاج! أتساءل ماذا عساه يكون». كانت المرأة الشابة وضعت فوق المرآة الصغيرة مرآة أخرى، أصغر منها، مستطيلة ومزدوجة الوجه، كانت تحلم أن تستخدمها في رحلة شهر العسل. والرحلة لم تتم في الحرب ولم يتسن لها أن تستعملها في حياة زوجها الأول.

الزوج الثاني استطاع أن يوفر لها رحلة شهر العسل ولكن جلد المحفظة أصبح باهتاً وقديماً فاستبدلت بها محفظة أخرى تحتوي، كالعادة، على مرآة صغيرة.

في أول أيام شهر العسل، قال لها هذا الرجل وهو يداعبها: «يا حبيبتي المسكينة، تبدين كفتاة عذراء»، ولم تكن في نبرته شبهة تهكّم بل كان واضحاً فيها أنه يعبّر عن مفاجأة سعيدة. فقد يجد الزوج الثاني في بقاء زوجته كفتاة عذراء ما يغوي، أما هي فقد أحست، والأسى يهز كيانها، بأن الدموع تملأ عينيها. وانكفأت على ذاتها. أيعتبر ذلك سخيفاً أيضاً؟

لم تستطع كيوكو أن تفهم بوضوح هل كانت دموعها تسيل حزناً على نفسها أو حزناً على زوجها الأول؟. إلا أنها سرعان ما أحست تجاه الرجل المستلقي في جوارها ببعض التأنيب لأنها فكرت في مثل هذا الأمر ورأت أنها مدينة له ببعض الكلام المعسول:

«وهل يختلف الأمر»؟، قالت وسرعان ما عاودها الضيق -وأحست بوجنتيها تشتعلان احمراراً.

أجاب زوجها بنبرة واثقة: «واضح أنك لم تنجبي أبداً».

أحسَّت أن كلامه يخترق قلبها من جديد. إزاء رجولة ليست لزوجها الأول تشعر بالمهانة، تشعر أنها دمية...

«لقد كان لدي دائماً الإحساس بأنني أعتني بطفل».

وما أضافت. حتى وهو ميت كان زوجها الأول الذي ظلّ لسنوات طريح الفراش يبدو لها وكأنه يحيا في داخلها مثل طفل. ولكن ما جدوى تعففهما كل هذا الوقت! ألم يكن محكوماً بالموت في أية حال؟

«لم أر موري إلا عبر نافذة القطار، على خط جوتسو». وبحديثه عن مسقط رأسها كان الرجل يجذبها إليه من جديد.

«اسمها يدلّ» على أنها بلدة جميلة بين الغابات. هل مكثت فيها طويلاً.

- حتى نهاية دراستي الثانوية. بعد ذلك استدعيت للعمل في مصنع للذخيرة في سانجو.

- هل هي قرب «سانجو؟». إن جمالات هذه المنطقة لذائعة الصيت. ولهذا السبب أنت على أكمل وجه!

قالت كيوكو وهي تضع يدها على فتحة الكيمونو الذي ترتديه: «ماذا تعني بقولك هذا!».

- يداك، ذراعاك، كلُّك جميلة. لذلك أستطيع أن أتخيّل أنك مولودة على أكمل وجه.

- ولكن لا.. كانت يداها تعيقان اقتراب زوجها منها فأبعدتهما المرأة الشابة بلطف.

«أظن أنني كنت سأتزوجك في أية حال حتى لو كنت أماً لطفل. وكنت أفضل أن تكون طفلة». همس الرجل في أذن كيوكو.

قد يكون مبرر هذا الكلام الغرامي أن الرجل له ولد. وأن الدافع لرحلة شهر العسل التي دامت عشرة أيام وجود هذا الولد في منزلهما الزوجي، وقد يكون الدافع لهذا القدر من الرقة في سلوكه معها.

كان يملك محفظة جلد تبدو من النوع الجيد والمتين دون أن تكون جديدة، وكأنه شديد العناية بها على أسفاره الكثيرة. أما محفظة كيوكو فكانت لا تحسد عليها. وشعرت المرأة الشابة بشيء من الأسى لأنها تركت محفظتها السابقة تهترئ دون أن تستخدمها. وحدها المرآة الصغيرة كانت عوناً لزوجها ولحقت به في موته.

بعد أن صهرت المرآة المستطيلة فوق المرآة الصغيرة لم يخطر لأحد سواها أن الزجاج المحروق كان في الأصل شيئين مختلفين. هي لم تبح لأحد بحقيقة هذه الكتلة الغريبة، ومن غيرها كان في استطاعته أن يحدس بالحقيقة؟

مع ذلك، كان يبدو للمرأة الشابة أن كل عوالم الماضي التي انعكست صورتها في تلك المرآة زالت بقسوة وإلى الأبد. وأحست بمشاعر الغياب التي أحستها مع فقدان جسد زوجها الذي أحيل إلى رماد. حتى المرآة الصغيرة التي عكست في البداية صورة جنينة الفاكهة باتت

تشكل ثقلاً إضافياً على صدر المريض، الذي كانت تمسّد له ذراعيه وكفيه، والذي أعطته المرآة الأخرى أيضاً، الأصغر والأخف وزناً.

وفي أيامه الأخيرة لم يكتف زوجها بتأمل جنينة الفاكهة وإنما أيضا السماء والثلج والجبال البعيدة والغابات القريبة.

رأى القمر وورود الحقول والطيور المهاجرة. وثمة بشر سلكوا الدرب في المرآة وأولاد لعبوا في الحديقة.

كانت المرأة الشابة تبدي عجبها لغنى واتساع العالم الذي يتراءى في المرآة، هذه المرآة التي ما كانت ترى فيها سوى أداة لإجادة تسريح الشعر المتدلي فوق العنق والتي فتحت لحياة المعوق أبواباً جديدة. كانت كيوكو تجلس قربه على السرير ويستغرقان معاً في النظر عبر المرآة ويتحدثان عن هذا العالم الذي يكتشفانه من خلالها. وبعيد وقت باتت تميز بين هذا العالم والعالم الآخر الذي تراه بالعين المجردة. وكانا عالمين مختلفين يتطابقان في نظرها: اكتسب العالم الذي كانت تراه عبر المرآة حقيقته الفعلية.

«في المرآة، تلمع السماء كالفضّة»، قالت ذات يوم، وأضافت وهي ترفع ناظريها لتأمل المدى خلف النافذة: «فيما السماء الأخرى رمادية وغائمة».

طبعاً كانت سماء المرآة لا تشوبها دكنة السماء الحقيقية: كانت السماء تلمع. «ألأنك تصقلها باستمرار؟».

دون أن يغادر السرير كان الرجل المريض يستطيع أن يرى السماء لمجرد أن يلتفت.

«بالفعل، إنه رمادي مطفأ. ولكن قد لا يكون اللون هو نفسه في عيني عصافير الدوري والكلاب. إذن كيف يعرف واحدنا من منّا يرى اللون الصحيح؟

- هو ما يبدو لنا كذلك... أتكون هذه المرآة عيناً؟».

وكانت كيوكو تسميها عين حبهما. كانت الأشجار تبدو فيها ذات خضرة أرقّ من الأشجار الحقيقية، والزنابق أشد بياضاً.

«هذه بصمة إبهامك يا كيوكو، إبهام اليد اليمنى». وأشار إلى طرف المرآة، ودون أن تعرف سبب مفاجأتها، وإجفالها، سارعت إلى نفخ الأثر لمحوه.

«لا، لا بأس! بصمتك على المرآة منذ أن أريتني جنينة الفاكهة للمرة الأولى.

- لم أنتبه.

- ربما ولكن بفضل هذا الأثر بت أحفظ غيباً بصمات إبهامك وسبابتك. وينبغي أن يكون الرجل مقعداً في سريره لكي يتعلم معرفة بصمات أصابع زوجته!».

منذ أيام زواجه الأولى كان هذا الرجل مقعداً. حتى لم يشارك، أيام العنف تلك، في العمليات الحربية. جُنّد في مراحل الحرب الأخيرة، وكانت هذه المدة القصيرة كافية لاستنفاد قواه في أحد المطارات الحربية. وصرف من الخدمة العسكرية لأسباب صحية قبيل الهزيمة وبات لا يقوى على الوقوف. وكان على شقيقه أن يأتي لصحبته إلى المنزل في رفقة كيوكو التي اضطرت للعودة إلى بيت أهلها بعد رحيله.

وكانا هرّبا كل أمتعتهما تقريباً خارج المدينة خوفاً من الغارات الجوية. وإذ احترق منزلهما الذي أقاما فيه في البداية استأجر غرفة في منزل إحدى صديقات كيوكو. والزوج يذهب إلى مكتبه كل يوم. الحقيقة أن المرأة الشابة لم تمض مع زوجها المعافى سوى شهر واحد في بيتهما القديم ثم شهرين في بيت صديقتها.

فيما بعد قررا استئجار بيت في الجبل لعلاج الزوج. كان بعض سكان المدينة من المهجّرين يقيمون في البيت الجبلي قبل عودتهم، بعد الهزيمة، إلى طوكيو.

تولّت كيوكو، منذ وصولها الجنينة الصغيرة بين الأعشاب العالية والتي لا يبلغ طولها أكثر من خمسة أمتار. لقد كان في استطاعتها أن تجد الخضار بسهولة في الجبل، وفي تلك الحقبة، لم يكن أحد ليتخلى طوعاً عن جنينة مثل هذه. إضافة إلى المتعة التي كانت لها وهي ترى الأشياء التي أنبتتها بيديها تنمو وتثمر. ولم يكن دافعها إلى ذلك ذريعة للابتعاد عن زوجها المريض بل لأنها كانت تجد أن أعمال الحياكة أو الخياطة محبطة. كانت آمالها تشرق وهي تقوم بأعمال البستنة وفي أثناء ذلك، لا تفكر إلا في زوجها وحبها له. أما القراءة فتكتفي منها بالتي يطلبها منها زوجها بصوت مرتفع. قد يكون ما بدا لها إحساساً بالضياع ليس أكثر من ردة فعل على تكريسها ساعات اليوم الطويلة للعناية بزوجها المريض، وكانت تأمل أن يتيح لها عملها اليومي في الجنينة فرصة للسيطرة على نفسها من جديد.

لقد قدما إلى الجبل في أواسط شهر أيلول، بعد رحيل زوار الصيف، ووصلا تحت رذاذ بدايات الخريف البارد.

ذات يوم، قبيل المغيب، كانت كيوكو تقف في وسط الجنينة التي تضيئها أشعة شمس زاهية. والسماء تشحب رويداً والعصافير بصرخاتها الحادة والخضار تلمع. والمرأة الشابة تنتشي بمنظر الغيوم الوردية تحوم حول قمم الجبال العالية حين فاجأها صوت زوجها. فهرعت صاعدة إليه ويداها ملطختان بالوحل. والرجل المريض يتنفس بصعوبة كبيرة.

«أناديك منذ وقت طويل وأنت لا تجيبين!

- اعذرني، لم أسمعك.

- أرجوك، كُفّي عن أشغال البستنة هذه.

فلو كان عليّ أن أناديك بهذه الطريقة في الأيام التالية لقضيت حتماً. إلا أنني ما عدت أعرف أين تكونين وماذا تفعلين؟.

- في الجنينة. ولكنني -في أية حال- سأكفّ عن ذلك».

رق لها من جديد وقال: «هل سمعت إنشاد القرقف؟».

لهذا السبب كان يناديها. وكان يتابع كلامه والطير يتابع إنشاده في الغابة المجاورة، غابة صغيرة ترسم أشعة الشمس الحمراء أشكالها بدقة. وهكذا تعلمت كيوكو كيف تعرف صوت القرقف.

«يلزمك جرس، أو جلجل وهكذا لا تبقى الحاجة للصراخ، ولكن في انتظار أن أحضره لك ألا تريد أن أضع قربك شيئاً ما تستطيع أن ترميه من النافذة لتلفت انتباهي؟

- فنجان شاي! أستطيع أن أرميه من الطابق الأول، وكم يكون الأمر مسلياً».

حصلت كيوكو إذن على الإذن بمواصلة أعمال البستنة، وفكرة أن تتدبر طريقة تسمح لزوجها برؤية الجنينة لم تراودها إلا بعد شتاء قاس طويل وبعد حلول فصل الربيع.

لقد جلبت المرآة كثيراً من الغبطة للرجل المريض كما لو عالم الوريقات الطرية استفاق أمام عينيه من جديد. ولم يكن في مقدوره تمييز الحشرات التي كانت زوجته تنزعها من بين أوراق النباتات: وكان عليها أن تصعد إليه كي تريه إياها، وعندما تنكش الأرض كان يقول: «أستطيع أن أرى دود الأرض».

حين تميل أشعة الشمس نحو المغيب وترسل أنوارها المائلة، كانت كيوكو الساهمة أحياناً مأخوذة ببريق عابر، ترفع رأسها نحو نافذة الغرفة: وتحدس أن زوجها استطاع أن يأسر بريق شعاع في المرآة. وطلب منها ذات يوم أن تخيط لنفسها ثوباً خاصاً لأشغال البستنة من قماش كيمونو قديم كان يرتديه أيام الدراسة. وبدا أنه بات في متعة ما أن يراها مرتدية مثل هذا الزي في وسط الجنينة. غالباً كانت المرأة الشابة تعمل وهي تعلم يقيناً أنه يراقبها وكانت تواصل عملها متناسية نظرات زوجها. وأحست بشيء من الدفء حين أدركت مدى تطور أحاسيسها منذ أيام زواجها الأولى: آنئذ كانت تحمر خجلاً لمجرد أن

ينحسر الكم عن مرفقها وهي ترفع المرآة الصغيرة نحو عنقها في لعبة المرايا المتوازية التي تمارسها المرأة بعد الاستحمام.

بعد الحرب والهزيمة لم تكن ظروف انشغالها بالاعتناء بالرجل المريض، وفترة الحداد فيما بعد، لتسمح لها بالتبرج كما تتمنى، ولم تألف هذه العادة من جديد إلا في زواجها الثاني. كانت تزداد جمالاً على نحو ملحوظ وهي تعلم ذلك. وعندما أسر إليها زوجها الثاني في لقائهما الزوجي الأول أنها تبدو «على أكمل وجه»، كان مصيباً ولا شك، وهذا ما أدركته فيما بعد.

فلا تشعر بأي ضيق إزاء انعكاس بشرتها الناعمة في المرآة لدى خروجها من الحمام مثلاً، بل ترى أنها جميلة في المرآة. إلا أنها تحفظ دائماً في أعماق ذاتها هذا الإحساس الحميم بالجمال تنعكس صورته في المرآة إذ تعلّمته من زوجها الأول. وبدل أن يفضي بها إلى الارتباك والشك خلصت إلى الاعتقاد بوجود عالم آخر.

ولا شك أن بين بشرتها التي تراها وتلمسها عن قرب وبين الصورة المنعكسة في المرآة كانت المرأة الشابة ترى تشابهاً أكبر بكثير مما كان الشبه بين السماء الرمادية التي تراها في الماضي وانعكاسها الفضي الزاهي في المرآة. ولا تكفي فكرة المسافة التي تفصل الشيء عن المرآة لتفسير هذا الاختلاف: فقد يكون عطش المريض وحنينه هما اللذين أثّرا على رؤيته.

وفي هذه الحال كيف يمكنها أن تتخيل بالضبط أي جانب يدفع زوجها لتأمل صورتها في المرآة حين كان ينظر إليها، عبر المرآة من الطابق الأول، حتى وهو لا يزال حياً لم تستطع أن تفهم من الأمر شيئاً.

كانت تحتفظ بإحساس هو أكثر بكثير من مجرد تذكار، إحساس بالأسى المفعم بالإعجاب بكل ما يصنع عالمهما الخاص: خيال قامتها وهي تعمل في الجنينة، ذلك الخيال الذي كان يطارده بالمرآة قبل موته. أطفال البلدة وهم يلعبون جماعات في الحقول، أزرق النرجسات

الداكن وبياض الأقحوان. والشمس الطالعة فوق قمم الجبال البعيدة. ولكنها، إكراماً لزوجها الثاني، كانت تكبت هذا الشعور الذي يزداد قوة فيها ويستدرجها إلى البعيد، وكأنه الوعد بعالم إلهي.

في صبيحة يوم من شهر أيار سمعت المرأة الشابة عبر المذياع إنشاد عصافير الأدغال مسجلاً في منطقة مجاورة للمنطقة التي عاشت فيها مع زوجها الأول قبل وفاته. وعندما رافقت زوجها إلى الباب قبل ذهابه عادت وأخذت المرآة الصغيرة من حقيبتها تعكس فيها صورة السماء كما كانت تفعل في السابق. واكتشفت ما أدهشها، إن المرء لا يتعرف إلا على انعكاس صورة وجهه. فهذه القسمات الخاصة بك والفريدة تظل غير مرئية. تستطيع أن تتلمس وجهك كل يوم، كما لو أن الملامح التي تعكسها المرآة ملامح وجهك الحقيقي...

ما هي الحكمة من كون الخالق صنع البشر بطريقة لا يستطيع واحدهم أن يتأمل وجهه الخاص به؟ واستغرقت كيوكو في التفكير لفترة طويلة.

«وحين يرى المرء وجهه أيصبح مجنوناً؟ ويصبح عاجزاً تماماً عن الفعل؟».

أيكون الإنسان نما على نحو يتعذر عليه فيه رؤية وجهه؟ وفكرت كيوكو، قد يكون اليعسوب والسرعوفة الراهبة أقدر منا على معرفة شكل رأسيهما؟

إن الوجه، الأكثر ما هو شخصي وخاص لدى البشر، مقدر له أن يكون فقط عرضة لأنظار الآخرين. أيكون الحب هو أيضاً كذلك؟

وحين همّت كيوكو بإعادة المرآة إلى صندوق الجهاز لاحظت أن ألوان إطارها لا تلائم لون خشب التوت. أيمكننا أن نتخيّل أن الصندوق الأرمل بقي كذلك بعد التضحية بالمرآة الأصلية؟ إن مجرد وضعها بين أيدي المقعد مع المرآة الأخرى، الأصغر، كان بالتأكيد بمثابة إساءة له، ولكنها إساءة لا تخلو من أخطار: فهذا يعني أنه سينظر إلى نفسه باستمرار مرتاعاً من تفاقم السوء الذي سيعبّر عنه هذا الوجه، أمامه، كما لو في خلوة مع إله الموت. فلو كان

هذا مجرد انتحار سيكولوجي أداته المرآة لكانت كيوكو هي القاتلة. وذات يوم، حين أدركت مخاطر الأمر حاولت استرجاع المرآة ولكن المقعد رفض أن يتخلى عنها.

«أتودين أن لا أعود أرى شيئاً؟ ما دمت على قيد الحياة أريد أن أقوى على حب ما أرى».

وكي يحتفظ بانعكاس طيف العالم كان مستعداً للتضحية بحياته. في بعض الأيام، وبعد هطول مطر غزير كانا يجلسان معاً يتأملان انعكاس القمر في بقعة مياه. وذاك القمر الذي يكاد يكون وهماً لوهم، يعاود البزوغ في قلب كيوكو.

«إن الحب الصحيح لا يحيا إلا في قلب الرجل الصحيح»: عندما كان زوجها الثاني يتلفظ بمثل هذه الأقوال المأثورة، كانت المرأة الشابة توافق حياء دون أي اقتناع وتتساءل باستمرار بعد وفاة زوجها الأول ما معنى تعففهما الطويل، وسرعان ما أصبح هذا من بين ذكريات حبهما المثير تعيدهما إلى زمن تحفظ منه لواعجها حنانه العامر. فيتلاشى ندمها وأساها. ألا يعمد زوجها الثاني إلى بعض الاستنتاجات المتسرّعة حول الحب حين تبديه امرأة ما لرجلها؟

«كيف لرجل بمثل رقّتك أن يهجر زوجته؟» سألته كيوكو دون أن تسمع جواباً. إن شقيق زوجها الأكبر بذل ما في وسعه لإقناعها بالزواج من هذا الرجل بعد أن عاشرته طوال أربعة أشهر. كان يكبرها بخمس عشرة سنة. وعندما علمت كيوكو بأنها حامل انتابتها أحاسيس راعبة تركت آثارها على قسمات وجهها.

وكانت تردد وهي تتشبث بزوجها: «أنا خائفة، أنا خائفة». ذات صباح خرجت حافية لتجمع أغصان الصنوبر، وفي صباح آخر أعطت ابن زوجها قصعتين للمدرسة، قصعتين تحتويان أرزّاً. وكانت تسهو لساعات وهي تتأمل المرآة الصغيرة المزقزقة وتحسب أنها ذات زجاج شفاف. وفي إحدى الليالي استيقظت فجأة وجلست في جوار زوجها على السرير تتأمل وجهه النائم وبرغم خشيتها حقيقة الحياة العارضة والهشة، حلّت حزام بيجامته... ولا شك أنها كانت على وشك الشروع في قتله خنقاً فانهارت فجأة وجعلت تبكي وتصرخ. استيقظ

زوجها مجفلاً وبعد حين اكتفى بربط حزام بيجامته بحركة رقيقة. أما هي فلم تفارقها الرعشة طوال تلك الليلة من الصيف.

«ثقي، يا كيوكو، بالطفل الذي تحملينه».

قال وهو يهز كتفيها برفق.

أشار الطبيب بضرورة إدخالها إلى المستشفى. ولم يرق هذا الأمر المرأة الشابة واقتنعت في النهاية.

«حسناً سأذهب. قبل أن أفعل دعوني ليومين أو ثلاثة في بيت أهلي».

صحبها زوجها إلى هناك. ومنذ الصباح الباكر ذهبت في اليوم التالي إلى الجبل حيث عاشت وزوجها الأول. وهذا في بدايات شهر أيلول، قبل عشرة أيام من موعد وصولهما إلى البيت وكانا لا يزالان معاً. وفي القطار كانت المرأة الشابة تعاني القلق والاضطرب والإحساس بالغثيان، وعلى الأخص كانت تخشى أن تتغلّب عليها رغبتها في القفز من باب المقصورة. إلا أن الهواء المنعش الذي لفح وجهها حين خرجت من المحطة أعانها على التمالك. واستعادت سكينتها وكأنها تحررت، كما بدا لها، من روح تسكنها. ومدفوعة بإحساس غريب تريّثت قليلاً تتأمل الجبال التي تحيط بالمنطقة. وكانت حدود القمم بلونها الأزرق النيلي ترتسم بوضوح في السماء.

أحسّت كيوكو أن هذا العالم يحيا. مسحت بكفيها الدموع التي ملأت عينيها وسارت نحو بيتها القديم. في الغابة التي كانت تتألق في الماضي بألوان الغروب الخوخية، كان طير القرقف يغني.

بدا بيتها القديم آهلاً بالسكان وستارة من الدانتيلا تغطي نافذة الطابق الأول. وكيوكو تنظر إليها دون أن تجرؤ على الاقتراب.

«ماذا يحل بي لو الطفل يشبهك؟» همست لنفسها وكأنها تعجب من الكلام الذي تقوله.
عندها عادت أدراجها يغمرها إحساس بالدفء والطمأنينة.

١٩٥٣

عاشق الحيوان

زقزقات قطعت عليه أحلامه: شاحنة قديمة تنقل أقفاصاً أكبر مرتين أو ثلاث من تلك التي نراها على خشبة المسرح مقفلةً على المحكومين.

هكذا أدرك أن سيارة التاكسي علقت في وسط موكب جنائزي. في الخلف، الزجاج الأمامي لسيّارة يحمل ورقة، بشكل أسطواني، عليها الرقم، ثلاثة وعشرون، يلامس طرفه وجه السائق. وحين أدار رأسه لاحظ أنهم يمرّون بمحاذاة معبد «زن». وعلى نُصُب حجري عبارة تحيي ذكرى دازاي شونداي. يافطة من ورق معلقة على الباب الكبير تُعلن:

مأساة لهذا المنزل

شعائر دفن...

كان الشارع ينحدر. ونزولاً عند المفترق كان الشرطي يحاول جاهداً تنظيم عبور السيّارات في الازدحام الذي سبّبته نحو ثلاثين سيارة. أمّا هو فكان يراقب القفص والعصافير التي سيطلقونها، بدون شك، بمناسبة الجنازة، وكان بدأ يغتاظ.

«كم الساعة؟» سأل الخادمة الشابة التي تجلس إلى جانبه وهي تحتضن بعناية سلّة الورود. إلا أنها لا تحمل ساعة فأجاب السائق:

«الساعة السابعة إلاّ عشر دقائق، ولكني أؤخّر ساعتي ستّ أو سبع دقائق».

كان الغروبُ في بداية ذلك الصيف لا يزال منيراً. وكانت الأزهار تُشيع رائحة قويّة ويسيلُ عطر بعض الأشجار المزهرة في حزيران من باحة المعبد.

«إذا تابعت على هذه السرعة سأصل متأخّراً. هلاّ زدت من سرعتك قليلاً؟

- ولكني مجبر على إعطاء أولوية المرور للسيارات التي تأتي من جهة اليمين وإلّا... ما هو العرض الذي يُقدّم على مسرح هيبيا؟».

قد يكون السائق يأمل في العثور على زبائن عند انتهاء العرض.

«عرض راقص.

- آه؟ كم يبلغ ثمن هذه العصافير التي سيطلقونها؟

- بالمناسبة، هل مصادفة موكب جنائزي تعني علامة شؤم؟».

علا صوت رفرفة أجنحة مذعورة. فالعصافير أحسّت بالهلع حين انطلقت الشاحنة.

«على العكس من ذلك فالبعض يدّعي أنه ما من فأل حسن مماثل».

كان السائق يرفق كلامه بمناورات في قيادته سيّارته بحيث استطاع أن يخرج من صفّ السيارات ويتجاوز الموكب من الجهة اليُمنى.

«إنه لأمر غريب! إذن النقائض تستدعي النقائض!» وضحك ولكنّه فكّر أنه من الطبيعي أن يعتاد مثل هذا الرجل على هذا النوع من التفكير.

كان في طريقه لمشاهدة شيكاكو وهي ترقص. ولم تكن أفكاره منتظمة. فقد يكون تَرْكه جثث العصافير في البيت شؤماً يفوق مصادفة موكب جنائزي. قال بشيء من التقزز:

«عند عودتنا لا تنسي أن ترمي عصافير الصعوة أظنّها ما زالت في خزانة الحائط في الطابق الأول».

منذ أسبوع مات زوجان من عصافير الصعوة في بيته. ولمّا كان يأنف من إخراجها من القفص وضعه في خزانة الحائط عند قرص الدرج وتركه هناك، وبعد وقت اعتاد، كما

الخادمة، على وجود هاتين الجثتين الصغيرتين، وكان يُغطي القفص بالأرائك حين يخرج من البيت أو يستقبل زوّاراً.

تعتبر الصعوة، إلى جانب القرقف والكاهن، من أصغر أنواع العصافير التي تربّى في الأقفاص. بطن هذه الطيور أخضر زيتوني، وذنبها أصفر ورمادي. أما ريش الحوصلة فرمادي. ويرتسم خطان أبيضان على طول الجناحين اللذين ينتهيان عند الأطراف بأرياش صفراء. على قمة الرأس خط أسود يُحيط ببقعة صفراء تميل إلى البرتقالي لدى الذكور منها وتبدو واضحة حين ينفش ريشه: فتبدو عندها مثل وريقات زهرة متفتحة. في هيئة عصفور الصعوة سحرٌ فكاهي تثيره عيناه المستديرتان وخطواته العصبيّة السريعة وكذلك طريقته في التشبّث بفرح بسقف القفص. إلاّ أن ظرفه هذا لا يخفي لديه سمة ما تميّزه عن غيره من العصافير.

ذات مساء أحضر مربّي العصافير زوجين. أما هو فقد سارع بوضعهما على مذبح العائلة! في الظل. وراقبهما لبرهة: كان العصفوران ينامان ملتصقين يتشابك رأساهما وتختلط أرياشهما، كأنهما امتزجا برقّة فلا تقدر العين أن تفصل بينهما وكأنهما كتلة من الصوف. وكان، هو، العازب الذي يقارب الأربعين يهزّه الانفعال ويعتصر قلبه الحنين.

أين نجد، في أي بلد، من بين البشر متحابين بمثل هذه البراءة، وفي حالةٍ من النعمى. كان يسأل نفسه وهو يشعر بالأسى لأنّ لا أحد بجواره يتأمّل مثله نوم العصافير... ولكنّه لم يناد الخادمة.

منذ ذلك الحين بات يتناول كل وجباته وهو يراقب العصفورين جالساً قُبالة القفص على الطاولة.

وكان لا يكاد يُرى إلاّ ومعه حيوان أليف، حتّى عندما يستقبل زواراً، ودون أن يصغي إلى كلام محدّثه كان يحرّك أصابعه أمام عصافير أبو الحنّ الصغيرة ويطعمها الحبوب، أو

يسترسل في تدريب عصافيره، هذا إذا لم ينشغل بتفلية قمل الكلب الصغير الذي يضعه على ركبتيه.

«هذا الحيوان يبدو لي على قدر كبير من القدريّة. أنا أحبّه كثيراً.باستطاعتك أن تنيمه على ركبتيك أو تزجره إلى الزاوية فيظلّ ساكناً نصف نهار».

وأحياناً كان الزائر ينهض مستأذناً قبل المغادرة دون أن ينظر مضيفه في عينيه.

وفي الصيف كان يدع فراخ الشبّوط تسرح في بوقال يضعه على الطاولة.

«أيكون هذا بسبب العمر؟ إن رؤية الناس تضجرني أكثر فأكثر. لا أحبّ البشر كثيراً، سرعان ما يشعروننني بالملل. أمّا في المآدب والأسفار فأنا أؤثر رفقة النساء.

- إذاً تزوّج!

- هذا ليس ممكناً أيضاً ذلك أنّني أفضل النساء الباردات - واللواتي يحافظن على برودهنّ. إذ يسهل عليّ مخاطبتهنّ. وأدّعي أنني لا ألاحظ لا مبالاتهنّ. لذلك لا أستخدم سوى فتيات تبدو عليهن علامات الصرامة.

- لذلك تربّي الحيوانات!

- الحيوانات ليست لا مبالية... في الحقيقة أنا لا أطيق الوحدة لولا وجودها».

كان يتابع المحادثة منتبهاً إلى الألوان المتنوعة التي تتلوّن بها حراشف فراخ الشبّوط في البوقال، وكأنه تائه في كونٍ من الأنوار الدقيقة - وفي النهاية ينسى وجود الزائر.

كان يحدث أن يضع في مكتبه نحو ثلاثين عصفوراً، ذلك أن مربّي العصافير كان يحضر له تلقائياً كل عصفور جديد يحصل عليه.

«تاجر العصافير أيضاً» كانت تقول الخادمة وهي تبدي ضيقها.

- حسناً، فأنا لا أعرف شيئاً آخر، وبمثل هذه الكلفة، يضمن لي أربعة أو خمسة أيام من المزاج الرائق.

- هذا لأنّك لا تفعل شيئاً سوى أن تراقبها طوال الوقت وعندها يكتسب وجهك ملامح رصينة حتّى...

- هذا يقلقك ويجعلك تتخيلين أنني أفقد صوابي! هل يبدو لك الصمت كئيباً لهذه الدرجة؟

أمّا هو فقد كان يجد أن الحياة مليئة بالطراوة خلال اليومين أو الثلاثة التي تعقب وصول عصفور جديد! وكأنّه يمتلك غبطة السماء والأرض! فهل هو رجل سيّئ؟ ما من كائن بشري يُثير لديه مثل هذه المشاعر. فالعصافير، الحيّة لأنها تعيش، تعبّر بصورة أفضل عن معجزة الطبيعة وأكثر بكثير مما تعبّر عنه الأصداف أو الورود برغم جمالها. حتّى وهي أسيرة أقفاصها تُعلن هذه المخلوقات الصغيرة عن بهجة الحياة، وكان هذا ما يعبّر عنه عصفورا الصعوة الصغيران، الحيويّان، بشكل خاص.

بعد انقضاء شهر فرّ أحدهما بينما كانت الخادمة تضع له الحبّ في قفصه. وكادت المسكينة أن تفقد صوابها. إذ حطّ العصفور على عشبة الكافور المبلّلة أوراقها بالندى الصباحي، فوق الهُري. وكان العصفوران ذلك الذي فرّ من القفص والآخر، يتناوبان بأصوات عالية. سارع الرجل إلى نقل القفص إلى سطح الهُري ووضع بجانبه قضيباً طويلاً مغطّى بالدبق، ولكن العصفور الطليق طار، وهو يضاعفُ الأصوات الحزينة، باتجاه الجنوب. باتجاه جبل نيكو موطن العصفورين الأصلي.

لم يبق لديه سوى الأنثى. ولشدّة ما كانت صورة هذين العصفورين النائمين تملأ مخيّلته ألحّ على بائع العصافير بأن يحضر له ذكراً وحاول أن يعثر لدى بائعي الطيور على واحدٍ منها هو بنفسه ولكنّه لم يوفّق.

لم يمض وقت طويل حتى جاء بائع العصافير بزوجين آخرين من الجبل. ولكنّ الرجل لم يكن يريد سوى الذكر.

«هذه العصافير لا تعيش إلّا أزواجاً. فلا يستطيع أن أحتفظ بواحدٍ، بمفرده عندي، خُذْ، فأنا أعطيك الأنثى بلا مقابل.

- ولكن هل ستأتلف فيما بينها وهي ثلاثة؟

- طبعاً! إذا وضعت قفصين متجاورين فسوف تتعرّف العصافير إلى بعضها البعض خلال أربعة أو خمسة أيام».

غير أنّه، مثل طفل أمام لعبة جديدة، لم يُطِق صبراً. فلم يلبث بائع الطيور أن غادر حتى أدخل الزوجين الجديدين في قفص الأنثى المستوحدة.

لم يكن في حسبان الرجل ما سببته فعلته هذه من جلبة. ما كاد الوافدان الجديدان يحطّان على مجثم القفص حتّى راحا يطيران بحيرة بين أطراف القفص فيما كانت النزيلة القديمة تبدوز عليها علائم الرهبة والجمود وهي تتأمل الهياج الذي يدور حولها من مكانها في أقصى القفص. كان الزوجان الجديدان يتناديان وكأنّهما في خطر. وكانت القلوب الصغيرة المرتعدة تنبض بعنف. وعندما وضع القفص في خزانة الحائط تلاصق الزوجان وهما يصدران بعض الأصوات العالية أمّا الأنثى الوحيدة فقد مكثت حائرةً في مكانها.

وحين لم يرق له هذا الحال، حاول فصل العصافير الثلاثة في قفصين فوضعها مع الذكر في قفص واحد ولكنّ هذا الأخير رفض، وهو يتبادل الزقزقة مع أنثاه، أي صلة حميمة له بالأخرى. ولكنّهما، في النهاية، حطّا جنباً إلى جنب من شدّة الإعياء. وفي مساء اليوم التالي وضعت العصافير الثلاثة في نفس القفص، ولكنها، هذه المرّة، كانت أقلّ خوفاً ونامت وكلّ واحد منها يدسّ رأسه في ريش جاره. وضع الرجل القفص قرب وسادته وغرق بدوره في النوم. وعندما استيقظ، في صباح اليوم التالي وجد اثنين من العصافير ينامان وكأنهما

كتلة واحدة من الصوف الدافئ، فيما كان العصفور الثالث مُلقى تحت المجثم، جناحاه منفرجان قليلاً وعيناه في نصف إغماضة، ميتاً ومنتصب القائمتين.

وكما لو أنّه كان يتوجّب أن يُخفي هذا المشهد عن العصفورين الآخرين أسرع بإخراج جثة العصفور الصغير وألقاها في سلّة المهملات دون أن يخبر الخادمة فقد أحسّ أنّه مذنب بقتل هذا الكائن الصغير وبطريقة فظيعة.

«أيّ من الثلاثة الذي مات؟» وحين حدّق في القفص مليّاً، حسِبَ، بعكس كل توقعاته، بأن الأنثى الأولى هي التي ما زالت على قيد الحياة. غير أنَّه فكّر أن ما خطر له ناتجٌ عن رغبته في أن تكون هي لأنّه يربيها منذ بعض الوقت فيما الثانية لم تأت إلّا منذ يومين فقط، وفكّر أن مثل هذه الخاطرة هي أبشع ما يمكن أن يخطر لرجل بلا أُسرة.

«من يبدي مشاعر الآثرة أو الاختيار، حريٌّ به ألاّ يحيا مع الحيوانات. ففي مثل هذه الحالة عليه أن يحيا مع البشر!».

الجميع يعرف أن عصافير الصعوة هي كائنات رقيقة وتموت لأقلّ الأسباب. إلاّ أن العصفورين المتبقيين بَدَوا، بعد هذه الحادثة، على خير ما يرام.

كان حلّ الفصل الذي لم يعد مجبراً فيه على الخروج لإحضار زاد الطُّييرين القادمين من الجبل. وكذلك الأمر بالنسبة لطائر الهذّار الذي التقطه برغم الخطر الذي تفرضه السلطات على مثل هذا العمل.

كان يغسِل العصافير عند الرواق الخارجي للبيت وكانت وريقات الوستارية تسقط في وعاء الماء وتزيّنه.

كان ينظّف القفص وهو يصغي بانتباه إلى رفرفة الأجنحة حين تترامى إليه صرخات الأولاد من خلف سور الحديقة. وكان عندها يُحسُّ أن حياة حيوان صغير مهدّدة بالخطر. أيكون كلبه الفوكس الخشن الوبر قد خرج إلى الباحة؟ تسلق السور الواطئ فرأى قبّرةً

صغيرة تكاد لا تقوى على الوقوف على قائمتيها تجرّ نفسها على جناحيها الرقيقين في وسط كومة النفايات. وسرعان ما خطر له أن يلتقطها.

«ما الذي يحدث؟

- الأناس الذين يسكنون هناك -وأشار تلميذ بإصبعه باتجاه منزل تنبت بجواره أشجار البارلينا الدميمة الزرقة- رموها. سوف تموت.

- أجل، حقاً».

ابتعد ببرود.

كان جيرانه يربّون ثلاث أو أربع قبّرات في ذلك المنزل. ولا بدّ أنهم تخلّصوا من طُيير لن يستطيع الغناء. لقد أحجم عن التقاط العصفور البائس بعد أن غمرته للوهلة الأولى أحاسيس الرأفة البوذيّة، لأنّه أيقن فيما بعد أن لا فائدة من التقاط مثل هذا الحيوان الذي لا قيمة له.

يتعذَّر في بعض الأحيان تمييز جنس بعض العصافير وهي صغيرة. إذ يحضر بائعُ الطيور القفص من الجبل وفيه خليط من الذكور والإناث ولكنه حين يتاح له أن يميّز جنسها يرمي الإناث لأنها لا تغنّي فلا يستطيع بيعها. إنّ حب العصافير يتحوّل بسهولة إلى إيثار لأجلها، ما يجعل مثل هذه الفظاعات التي نراها أمراً لا مفرَّ منه.

وبرغم ميله لأن يحتفظ، راضياً، بكل الحيوانات التي يستطيع أن يحصل عليها فقد علّمته التجربة أنّ هذا التقلُّب لا يعبّر إلّا عن لا مبالاة ويُنذر لديه بهوان معنى الحياة.

أما الآن فهو لا يُطيق، حتّى بعد توسّل، أن يعتني بحيوانٍ، ولو كان كلباً جميلاً أو طيراً رقيقاً، كان في رعاية آخرين.

لهذا السبب لا أحبّ البشر، كان هذا الرجل يقول لنفسه بشيء من الأنانية.

حين يكون واحدنا متزوجاً أو له أطفال وأشقّاء، يُصبح متعذراً عليه أن يقطع هذه الصلات. وعندها يتوجّب عليه أن يرضخ للحياة المشتركة حتى ولو كان شركاؤه مجرّدين من أية أهميّة. الصواب هو أن يحمل كل واحدٍ منّا ما يُسمّى بالأنا.

غير أن التربية العلميّة، والمضادة للطبيعة، للمواشي والتي تنزع إلى تبنّي معايير جمال مجانيّة، ولا تعترف بحياة هذه الحيوانات ولا بتقاليد سلوكها، كانت تبدو له وكأنّها تعبِّر عن تخلٍّ مؤثر وعن برود شبه إلهي. كان باستطاعته أن يحتمل أولئك الهواة الذين يُقصرون اهتمامهم على نقاء السلالة، ولكنّه إنّما كان يفعل بإحساس عميق بالسخرية، إذ كان يرى فيهم الرمز المأساوي للإنسان الذي يجعل الكون آهلاً.

ففي إحدى أمسيات شهر كانون الأوّل الماضي، جاء تاجر الكلاب وطرق بابه، وكان لونه البرتقالي الباهت يجعلك تظن أنه مصاب بداء الكِلى المزمن.

«لقد ارتكبت حماقة فظيعة. فيما كنت أجتاز الحديقة، منذ قليل أفلتّ رسن الكلبة. كانت الرؤية شبه معدومة بسبب الضباب فغابت عن نظري لبرهة قصيرة ثمّ فاجأتها مُستسلمة تحت كلب شارد. نهرته فوراً وأبعدتها عنه وأخذت أضرب بطنها بقدمي، تلك الكلبة القذرة حتى تهاوت إعياءً. ولكن أحسب أن كل ما فعلته كان عبثاً. فهذا النوع من المغامرات غالباً ما يُثمر... يا للحماقة.

- أية حماقة يرتكبها محترف مثلك!

- أنت محق! أشعر بارتباك! إنها هفوة لا تعوّض! لقد جعلتني أخسر ثروة في لحظة واحدة، يا لها من كلبة قذرة!».

كانت ارتعاشة خفيفة تسري في شفتي البائع الشاحبتين.

كانت الكلبة، وهي من أصل دوبرمان الذي يُعرف عادة بالشجاعة، تقف وقد غار رأسها بين كتفيها وهي تنظر، أحياناً، إلى البائع بعين خائفة. وفي الخارج كان الضباب منتشراً.

ساوم لإتمام صفقة بيع هذا الحيوان، ولكن كيف سيداري إحراجه لو وضعت الكلبة جراء الزنا في بيت الشاري! لقد أصرّ الرجل على هذه النقطة ولكنّ التاجر، الذي كان في حاجة إلى المال، باع الكلبة برغم كل التحذيرات التي سمعها. ولم يمض وقت طويل حتى تأكدت مخاوف الرجل. فبعد يومين أو ثلاثة من إبرام عقد البيع جاء الشاري بالفعل مصطحباً الكلبة معه وأخبر التاجر أنها وضعت جراء ميتة في الليلة التي تلت وصولها إلى بيته.

«يبدو أنَّ عويلاً سببه الألم الشديد سُمعَ خارج البيت. ففتحت الخادمة المصراعين الخارجيين ورأت الكلبة وهي تلتهم جراءها تحت الشرفة. لم تر الفتاة جيداً لهول المفاجأة. ولم يكن نور الفجر كافياً، فلم تعرف عدد الجراء. ولكنها رأتها بأية حال وهي تلتهم الجرو الأخير. قال لنا البيطري الذي استدعيناه على جناح السرعة إن التاجر لا يبيع أبداً كلبة حُبلى ولا بدّ أنها حملت من كلب شارد. ولا بدّ أنها ضربت بقسوة قبل تسليمها ولا يبدو وضعها طبيعياً إلاّ إذا كانت معتادة على التهام صغارها. مهما يكن الأمر نريد أن تستردّها. نحن جميعنا في حالة إحراج كبير؛ إنها تستدعي الشفقة هذه الكلبة المسكينة بعد كلّ الذي جرى لها.

- ما هذا الهراء، قال وهو يجذب الكلبة إليه بحركة طبيعية محاولاً أن يجسّ بطنها. واضح من هذه الأثداء أنها أرضعت من قبل. ولا بدّ أنها التهمت صغارها هذه المرّة لأنها أنجبتها ميتة». قال هذا بلا مبالاة مصطنعة برغم كل ما كان يثيره فيه التاجر السيّئ النوايا من غيظ وإزاء ما جرى لهذه الكلبة البائسة.

ذات مرّة، حدث أن ولدت كلبة أنغالاً في بيته.

حتى في أسفاره كان يأنف أن يشاركه رجلٌ آخر غرفته ويكره أن يستضيف أحداً. فلم يستقبل في حياته أيّاً من أولئك الطلاّب الذين يعملون لدفع تكاليف دراستهم.

ربّما يصعب تفسير هذا النفور أو هذا الحَرَج الذي يسببه له البشر، أما بالنسبة للحيوانات فكان لا يعتني منها إلّا بالإناث. أما الذكور وكان يختارها لحفظ النسل فينبغي أن تتمتع

بجمال نادر. كلفتها باهظة، ناهيك عن الدعاية التي تنظّم لهذا الغرض وكأنها تشويق نجوم سينما. ولكنّ الإقبال يظلّ هشاً ويتحوّل الأمر إلى عملية تنافس وتصبح الغلبة لمن يمتلك قدراً أكبر من المال.

ذات يوم قصد أحد مُرَبّي الكلاب وسأله أن يُريه كلب وجّار، وهي سلالة من الفحول التي ذاع صيتها. كان هذا الكلب يقضي أيّامه في حجرةٍ في الطابق الأوّل، وبدا، لشدّة العادة، أنَّه يرى أنثى كلما أمسكته يد وأنزلته إلى الباحة، من يراه يحسب أنه بغيّ محترفة. وكانت سمات الكبرياء تبدو واضحةً في نقلته كأنّه يتباهى بوبره القصير وعضوه الاستثنائي. رأى الرجل في هذا المشهد ما يثير الرعب ولم يستطع إلَّا أن يغضّ بصره عنه.

ولكنَّ السبب الفعلي الذي يحول دون امتلاكه لذكر هو أنّه كان يفضِّل الوضع وتربية الجراء.

كانت أمّ الأنغال كلبة بوسطن. وكان عبثاً يربطها في أوقات استحرامها؛ فقد كانت تحفر الأرض تحت السياج وتمزق سور القصب وتقطع الحبل بأنيابها لكي تشرد. وكان الجميع يعلم يقيناً ما سيكون من أمر جرائها، ولكنْ، برغم ذلك، حين جاءت الخادمة واستدعته نهض كأنه طبيب.

«ناوليني المقص والقطن. اذهبي بسرعة وقصّي رباط برميل الساكي».

كانت شمس صباحية تنير أرض الفناء الخارجي في يوم من بدايات ذلك الشتاء. وكانت تسودُ الطراوة الوافدة. استلقت الكلبة في بقعة دافئة وبدأ كيسٌ في شكل ولون الباذنجانة يخرج من بطنها. نظرت إلى سيّدها نظرةً متوسّلة وهي تحرّك ذيلها بوهن. فأحسّ بشيء من الندم.

كانت أوقات استحرامها قد واتتها خلال الموسم الفائت، ولم يكن جسمها نضج كليّاً بعد. وكانت عيناها تشيان بارتباكها.

«ولكن ما الذي يجري في داخلي؟ أنا لا أفهم شيئاً، ولكنّي أجد الأمر محرجاً. ماذا ينبغي أن أفعل؟» كانت تبدي شيئاً من الحرج، وربّما بعض الخجل، ولم تكن تبدي ما يدلّ على أنها معنية بما يحدث.

وهكذا تذكّر شيكاكو، عندما تعرّف عليها لعشر سنوات خلت. كانت تبدي عندها، وهي تبيع نفسها لها، نفس الملامح المعبِّرة التي تبديها هذه الكلبة.

«أصحيح أنَّ الواحدة منكنّ تصاب مع الوقت بالبرود الجنسي في هذه المهنة؟

- قد يحدث هذا. ولكن حين تلتقي برجل تحبُّه... بأيّة حال، لا تستطيع أن تقول «في هذه المهنة» إذا كنت تقصد اثنتين أو ثلاثاً من المحترفات...

- ولكن أنتِ، أعني أنني أحبّك فعلاً!

- ومع ذلك، أنت لا...

- بلى، بالتأكيد، طبعاً!

- آه!

- فقط حين أتزوّج، سيُعرف كلُّ شيء.

- أجل، طبعاً.

- ماذا نفعل لكي لا يُعرفُ شيء؟

- كيف كنتِ في الماضي؟

- وزوجتك، كيف كانت؟

- باه...

- بلى، بلى، قُل!

- ليس لديّ زوجة» قال بشيءٍ من الدهشة حين رأى نظرتها الجديّة.

«إنهن يتشابهن. ولهذا السبب أشعر بالندم»، قال في سرّه وهو يحمل الكلبة بين ذراعيه ليضعها في صندوقٍ مهيّأ لهذه الغاية.

وضعت للتوّ جرواً يغطيه غشاء يشبه الكيس. وبدا أن الأم لا تعرف ماذا تفعل من تلقائها. فعمد هو إلى شقّ الكيس وقطع حبل السُّرّة بضربة مقص.

كان الكيس الغشوي التالي كبيراً. كان يحتوي على سائل كثيف يسبح فيه جروان تشبه ألوانهما ألوان الموت. سارع بلفهما بورقة جُرنال. ثمّ وضعت ثلاثةٍ أخرى، كل واحد منها في كيس. أما السابع والأخير فكان يتحرّك ولكنه بدا واهناً. وبعد أن رمقه بنظرة عاجلة لفّه هو الآخر بورقة.

«ارميها في مكان ما» قال. الغربيون يتخلصون من الجراء الأضعف تكويناً - وهي طريقة ممتازة للحفاظ على نسل جيّد، ولكنّ اليابانيين يبدون قدراً أكبر من العطف فلا يفعلون ذلك. «بيضة نيئة للأم!».

عندها غسل يديه وعاد إلى النوم. كان صدره يمتلئ بهجةً حين تولد حيوانات جديدة. وكان يودّ أن يخرج ويتمشّى في الشارع متناسياً أنّه، منذ قليل، قتل جرواً بيديه.

غير أنه حين فتح عينيه باكراً، ذات يوم، وجد أحد الجراء ميتاً. فحمله بطرف أصابعه ووضعه في فتحة الكيمونو الذي يرتديه ليرميه خلال نزهته. وبعد يومين أو ثلاثة وجد جرواً آخر ملقى على الأرض جثة هامدة. كانت الكلبة قد طمرته بالقش وهي تفسح مكاناً

لها، ولم يقو الجرو على رفعها بقوائمه. كانت تنام على القش الذي يغطّي الجراء بدل أن ترفعها بخطمها وكانت تموت في الليل إما اختناقاً وإمّا بسبب البرد.

كانت هذه الكلبة تتصرّف مثل بعض النساء اللواتي يصبحن أمّهات على درجة كبيرة من الغباء فيخنقن أطفالهن في أحضانهنّ.

«انظري واحدٌ آخر!» قال هذا وهو يضع الجثة الصغيرة في فتحة ثيابه، ثمّ أطلق صفيراً من بين أسنانه إشارة منه إلى الكلاب لترافقه في نزهته في الحديقة المجاورة. وفجأةً، رأى الكلبة التي كانت تتقافز بهجةً دون أن تحدس للحظة واحدة بأنها سببت موت صغيرها، فذكرته من جديد بشيكاكو.

حين كانت لا تزال في التاسعة عشرة اصطحبها أحد الوسطاء معه إلى هاربان وتلقّت دروساً في الرقص على يد روسية بيضاء لمدة ثلاث سنوات. ويبدو أن هذا الرجل أصابه القنوط بعد سلسلة من الصفقات الخاسرة. لذلك عمل على إلحاق شيكاكو بإحدى الفرق الموسيقية الجوّالة في مقاطعة منشوريا أما هو فاستطاع بعد جهدٍ كبير أن يعود إلى وطنه. بعد فترةٍ قصيرة من عودتها إلى طوكيو هجرته المرأة الشابة وتزوّجت من أحد الشبّان الذين رافقوها في جولتها هناك. وفيما بعد أصبحت تنظم حفلات خاصة بها وتقيم استعراضات راقصة لحسابها.

أما هو فكان في ذلك الوقت يُعدّ من بين الشخصيّات المرموقة في عالم الاستعراض الفنّي ويقدّم نفسه بوصفه رجلاً مولعاً بالموسيقى -كان في الحقيقة يكتفي بتمويل مجلة موسيقية مختلفة كل شهر- وكان يتردّد على حفلات وعروض الموسيقى ولكنْ، على الأخصّ، بهدف التحدُّث إلى معارفه وصلاته العديدة. وهكذا شاهد شيكاكو وهي ترقص. ولم تلبث أن أسرته الحيوية البريّة التي كانت تنبعث من هذا الجسد غير النقيّ. وكان يسأل نفسه طوال الوقت: «ما سرّ قدرتها على إعادة خلق نفسها بمثل هذه الوحشيّة. كان شديد التوتّر إذ قارن ما هي عليه الآن بما كانت عليه لست أو سبع سنوات خلت، وتوصَّل إلى أن يسأل نفسه لماذا لم يتزوّجها من قبل.

إلاّ أنّ هذه الحيوية خَبَت قليلاً في المشهد الرابع. فهرع إلى حجرتها وراء الكواليس. كانت شيكاكو تزيل المساحيق عن وجهها قبل أن تنزع ثوب الاستعراض فأمسكها من كمّها وجذبها معه نحو عتمة الكواليس.

«ولكنْ دَعْني! لو لمس أحدٌ نهديّ، فقط نهديّ، لتألمت!

- آه، ولكنّ هذا ليس جيّداً بالنسبة لك! أنت مجنونة!

- ولكنّي أحبّ الأطفال كثيراً! ولطالما رغبت أن يكون لي طفل!

- وتريدين العناية بتربيته؟ يا لهذا الضعف! ومهنتك، ماذا يحلّ بها بعد ذلك؟ ماذا تصنعين بطفلك؟ كان عليك بأساليب الوقاية، بالله عليك هل يُعْقَل هذا!

- لم يكن باستطاعتي أن أتصرّف بطريقة أخرى.

- يا للغباء! أن يتصرّف فنّان بمثل هذه الطريقة وبغباء مطبق ... مستحيل. ما رأي زوجك؟

- إنه مسرور جداً. بدأ يحبّه كثيراً منذ الآن.

- آه.

- بعد الحياة التي عشتها في الماضي... أحس بالسعادة لأنني سأرزق طفلاً!

- سيكون عليك أن تعتزلي الرقص.

- لا، طبعاً!».

كانت نبرتها تنمُّ عن قسوة مفاجئة. فصمَت.

لكنّ شيكاكو لم ترزق طفلاً آخر. ومع انقضاء الوقت ما عاد أحد يرى ذلك الذي رزقت به والذي، ربما، كان السبب في الأحزان والعواصف التي واجهتها حياتها الزوجية. على الأقلّ كثرت الشائعات حول هذا الموضوع وبعضها ترامى إلى مسامعه.

لم يكن باستطاعة شيكاكو إذن أن تكون لا مبالية بإزاء طفلها وهي بذلك تشبه الكلبة.

أيقن، عندها، أنّه كان باستطاعته، لو أراد أن ينقذ الجراء. فبعد الحادث الأوّل كان باستطاعته تجنب الحوادث التي تلت. كان يكفي أن يُقطّع أعواد القش إلى أجزاء صغيرة وأن يفرد قطعة من القماش فوقها. ومع ذلك فإنّ آخر الجراء الأحياء مات لنفس السبب الذي أودى بأشقائه الثلاثة. لا يمكن أن يُقال طبعاً إنّه أراد أن تموت الجراء ولكنّ حياة هذه الكائنات البائسة لم تبدُ له ضرورية. ومما لا شكّ فيه أن تلك اللامبالاة الكاملة التي كان يشعر بها مردّها إلى أن الأمر يتعلق بجراء زنا.

غالباً ما كان يتبعه في نزهاته كلبٌ شارد. وكان في طريق عودته يحدّثه ويُطعمه ويُنيمه في مكان دافئ. وكانت هذه اللقاءات العابرة تجعله يظنّ بأنّ الكلاب تحسّ بطيبة قلبه، وكان ظنّه هذا يغمر حياته بالغبطة. كان يحدث هذا، على الأقلّ، قبل أن يعمد هو نفسه إلى اقتناء الكلاب وتربيتها. أما، بعد ذلك، فبات لا يلتفت إلى الكلاب الشاردة التي كان يصادفها.

البشر لا يتصرّفون بطريقة مختلفة. إنه يزدريهم، هم وعائلاتهم، ولكنّ هذا ما كان ليحول دون سخريتهم من وحدته.

وفيما يتعلّق بالقبّرة الصغيرة فقد انتابته أحاسيس مماثلة. إن مشاعر الرأفة البوذية تقوم على رعاية الحياة والحفاظ عليها ولكنّ تعاطفه لم يلبث أن تلاشى في هنيهة لأنه فكّر في عدم جدوى العناية بعصفور لا فائدة منه؟ فتركه عرضةً لألعاب الأولاد. وكانت اللحظات التي استغلّها لإلقاء نظرة خاطفة على هذا الطير كافية لأن يتعرّض زوجا الصعوة خاصّته لخطر داهم.

بعد أن زالت عنه صدمة المفاجأة رفع القفص من الدلو. كان العصفوران ممدّدين على اللوح السفلي مثل خرقتين مبلّلتين. وضعهما على راحتيه ولمح رعشة خفيفة تهزّ قائمتيهما.

وصرخ: «يا لحظّي، إنهما لا يزالان على قيد الحياة!» أبقاهما فوق منقل الجمر برهةً لكي يستعيدا بعض الدفء. كانت عيناهما مغمضتين وكانا باردين حتّى أعماق جسديهما الضئيلين وبدا أنّهما لن يعودا إلى الحياة. أضاف فحماً إلى المنقل وطلب من الخادمة أن تنفخ عليه. تصاعد قليل من البخار من أرياش الصعوتين اللتين هزّتهما رعدة مفاجئة. كان يأمل أن يجد هذان العصفوران الصغيران في الصدمة التي توفرها لهما الحرارة القويّة، الرعشة الكفيلة بمساعدتهما على مقاومة الموت.

غير أنّ الحرارة لسعت يديه فوضع العصفورين على فوطة في القفص ورفعه فوق المنقل. كانت الفوطة تحمّر فيما يتقلّب العصفوران على نفسيهما بارتعاشات خفيفة، وقد انفرج جناحاهما كأنّهما يتعرّضان للضرب، ولكنه حين أبعد القفص عن النار، ظلّ العصفوران جاثمين كما كان ولا شيء يُشير إلى أنهما يتعافيان. فذهبت الخادمة تسأل الجيران، مُربّي القبرات، ماذا عساها تفعل؟ فأشاروا عليها بأن تعطي العصفورين شاياً وأن تغطيهما بالقطن. وضعهما الرجل في راحتيه وغلّفهما بالقطن وغطّس منقاريهما في الشاي البارد فشربا منه، ثمّ قربهما من وعاء فيه بعض الخس المفروم، فأخذا ينقدان منه.

«آه! لقد بُعثا من جديد!».

أية فرحة منعشة! استعاد أنفاسه وأدرك أنّ أربع ساعات ونصف الساعة انقضت وهو يحاول إنقاذ العصفورين.

لكنّهما حين حاولا مراراً الوقوف على المجثم كانا يسقطان عنه كلَّ مرة، حتّى بدا أنهما لا يستطيعان فتح أظافرهما. فأمسكهما ومرّر إصبعه على القوائم فوجدها متشنجة وقاسية. هل تنكسر مثل أغصان دقيقة يابسة؟

«لنأمل أنّك لم تحرقها بما كنت تفعله منذ قليل؟».

بعد أن قيل له هذا لاحظ أن لون القوائم بدا له باهتاً ومختلفاً عمّا كان عليه في السابق. فأحس بموجة غضب عارمة زاد من حدّتها أنه أدرك خطأه.

«كيف يمكن أن تحترق قوائمهما وأنا أمسك بهما أو حين وضعتهما على الفوطة! إذ لم يتماثلا للشفاء غداً، اذهبي واسألي بائع العصافير ماذا عسانا نفعل؟».

أقفل عليه باب حجرة المكتب وأخذ يدفّئ قوائم العصفورين بفمه وأحسّ بطعم غريب على لسانه حتّى أنّ الدموع ملأت عينيه، بعد ذلك أخذ يرطب الأجنحة الصغيرة بعرق راحتيه. أما الأصابع الدقيقة، الهشة فما كانت لتتحمّل أية ملامسة فظّة. لذلك حين رطّبها بلعابه استعادت بعض ليونتها. عمد أولاً، وبعناية فائقة، أن يفرد إحدى الأصابع، ثمّ حاول أن يجعل العصفور يقف على سبّابته. وبعد المحاولة الأولى كان يعود ويضع القوائم الصغيرة في فمه. ثمّ عمد إلى نزع المجثم من القفص ووضع فيه وعاءً يحتوي على بعض الأطعمة، ولكنّ العصفورين كانا لا يزالان يبديان بعض الصعوبة في الوقوف بشكل ثابت.

«يظن بائع العصافير، هو أيضاً، أنّك أحرقت قوائم العصفورين، قالت الخادمة في اليوم التالي بعد أن ذهبت إلى متجره. ويبدو أن أفضل ما يمكن أن نفعله هو أن ندفّئ القوائم المصابة بالشاي الساخن - هذا برغم أن العصافير تعالج نفسها بنفسها وهي تعالج الأطراف المصابة بمناقيرها».

وبالفعل كان العصفوران يعالجان قوائمهما المصابة بضربات سريعة من منقاريهما، كما كانا يحاولان مدّ أصابعهما لكي يستطيعا الوقوف وكأنّهما كانا يقولان في سرّهما: «هيّا، يا قائمتي، ماذا حلّ بك؟ هيّا تشجّعي!».

كانت الحيوية التي كان يبديها هذان الكائنان الضئيلان من القوّة بحيث يصعُب على من يراهما أن يصدّق بأنّ سوءاً قد أصاب بعض أطرافهما. أما هو، وقد غمره الحنان، فكانت

تزيّن له نفسه بأن يخاطبهما بعبارات مشجّعة. كان يغمس قوائمهما في الشاي، ولكن حين كان يضعها في فمه كان يبدو بوضوح أنّ سعادة العصفورين أكبر بكثير. لم يكن عصفورا الصعوة مدجّنين. ففي البداية كان واحدهما يخبط بجناحيه ويتململ إذا حاولت يدٌ أن تمسك به. أما الآن، بعد يومين أو ثلاثة من الحادثة، فباتا لا يخشيان شيئاً، بل على العكس، كانا ينقدان وينشدان سعيدين في راحة كفّه، الأمر الذي زاد من إشفاقه عليهما.

غير أنّ كلّ محاولات العلاج باءت بالفشل، وبدأ الياس يغلبه. غطّت التخثّرات قوائم الصعوتين وفي صبيحة اليوم السادس ماتا معاً.

إن موت عصفور لخفيف حقاً. في الصباح نجد الجثة الضئيلة جاثمة في القفص.

أوّل طيرين ماتا عنده كانا طاووسين. ذات ليلة انتزعت الجرذان أرياش ذنب الطيرين. وكانت الدماء تملأ أرجاء القفص الكبير. مات الذكر في صباح اليوم التالي. أمّا الأنثى فعاشت طويلاً بعده، وكلّ ذكر كنا نأتي به لأجلها كان يموت أيضاً. كان عِجزها يمعط ويحمّر مثل قفا سعدان. ولم تلبث أن خارت قواها وماتت.

«لا يبدو أن الطواويس تسعد في داري، فلا أريد المزيد منها».

لم يكن يحبّ الطواويس وأنواع الطيور الأخرى التي تُعجب بها الفتيات الصغيرات، كما لم يكن يحبّ الطيور الغريبة التي يربيها الغربيّون ويطعمونها الحبوب، بل كان يؤثر القناعة الريفيّة لطيور بلاده التي تكتفي بأكل العصيدة. ولم تكن بعض الطيور الأخرى تثير لديه أيّ اهتمام. لا الطيور المنشدة بتغريدها المتألّق ولا القبّرة ولا الكروان ولا الكناري. وإذا كان اقتنى الطواويس فلأن بائع الطيور أحضرها له، وإذا كان عاد واشترى عدداً منها فيما بعد فلأنّ أحد الزوجين الأوّلين مات في داره.

لنأخذ الكلاب، مثلاً: فبعد أن تربّي كلباً من جنس «كولي»، تواصل الاهتمام بالكلاب التي تنتمي إلى هذا الجنس، تماماً كما تحبّ النساء اللواتي يذكرنك بحبّك الأوّل، حتّى إنّك لا

تستطيع إلّا أن تتزوّج من امرأة تشبه تلك التي فقدتها. ألا ينشأ كل هذا من هذه المشاعر؟ أن تحيا مع الحيوانات يعني أن تحبّ بمفردك، بإحساس من الكبرياء الطليق. فتوقف عن تربية الطواويس.

ذُعَرَة صفراء، ماتت بعد الطاووس، كانت تثير لديه -بجنبيها المخططين باللون الأخضر وبطنها الأصفر وظلّها الرقيق- أناقة باقة بامبو مزهر. ثمّ إنها، على الأخصّ، كانت تعرفه جيّداً. كانت تأتي طوعاً لتنقر طعامها في راحة يده، وتصفّق بجناحيها المفتوحين، حتى حين لا تكون جائعة. وأحياناً، كما لو أنها تمازحه، كانت تأتي وتزعم أنها تنقر الشامات التي تزيّن وجهه. وذات يوم تركها طليقة في الصالة وخرج ولكثرة ما زقّت من فتات حلوى العسليّة ماتت. أراد أن يشتري ذُعرَة أخرى ولكنَّه بعد وقت تخلى عن فكرته هذه، ووضع في القفص عصفور «أبو الحنّ» الذي لم تكن لديه أي فكرة عن أساليب تربيته.

كان يعلم أنه مذنب في الحادثة التي أودت بالصعوتين، حين غرقا ثمّ احترقت قوائمهما. ولعلّ إحساسه بالذنب هو الذي جعله شغوفاً بهذا النوع مُتمسّكاً به. ولم يلبث بائع الطيور أن أحضر له زوجين آخرين. طبعاً إنه نوع نادر من العصافير، ولكن هل ينبغي أن يخضع النوع بأكمله للتجارب نفسها فيما الرجل يراقبها وهي تستحمّ؟

حين أخرج القفص من الدلو، لم يبد على العصفورين الوافدين أنّهما تعرّضا لما تعرض له سلفاهما. كانا يرتجفان وعيناهما مغمضتان ولكنّهما كانا ثابتين بوقفتهما. أما هو فسيحرص هذه المرّة على أن لا يحرق قوائمهما الصغيرة.

««حسناً» إذن! مرّة أخرى! أشعلي النار! قال الرجل بشيء من اللامبالاة برغم إحساسه العميق بالذنب.

- ولكن، يا سيّدي، ألا يُحسن أن تدعهما يموتان من تلقائهما؟».

ارتعد من شدة الصدمة.

«هيا، لا تقولي هذا، هذه المرة سيكون الأمر مختلفاً. وسوف يتعافيان بسهولة.

- ولكنّهما لن يعيشا طويلاً. كنتُ أتمنّى وأنا أنظر إلى العصفورين السابقين أن يموتا بأسرع وقت. كانت قوائمهما في حالة...

- كان باستطاعتنا أن ننقذهما لو أردنا.

- من الأفضل أن تدعهما يموتان بسلام.

- أتعتقدين ذلك؟».

أصابته نوبة من الإعياء حتى كاد يُغمى عليه فجأة. وصعد دون أن يتفوّه بكلمة أخرى إلى غرفة مكتبه في الطابق الأوّل ووضع القفص على حافة النافذة المشمسة وراح يراقب احتضار العصفورين بشرود.

كم كان يأمل أن يتعافى العصفوران بفضل أشعة الشمس! كان حزيناً دون أن يعرف سبباً لحزنه وكان يشعر أنه، في تأمّله، يستغرق، ببرود شديد، في تقويم المصير التافه للبشر. على أية حال، لم يكن بإمكانه أن يفتعل قصّةً كبيرة لإنقاذهما، كما فعل في المرّة السابقة.

بعد أن نفق العصفوران إثر لحظات نزعٍ طويل، أخرج الجثتين المبللتين من القفص وأبقاهما في راحتيه لبعض الوقت ثمّ أعادهما إلى القفص وحشره في خزانة الحائط بين الثياب. ثم نزل إلى الطابق الأرضي واكتفى بالقول مخاطباً خادمته: «لقد ماتا». إن عصافير الصعوة، الضئيلة والرقيقة، تموت لأي سبب، فيما عصافير أخرى من نفس النوع، كالقرقف والكاهفيّ، كانت تعيش على أحسن حالٍ في داره. ولكنه قتل عصافير الصعوة، مرتين، وهو يجعلها تستحمّ. أتكون الصعوة لا تستطيع أن تحيا في نفس المكان الذي ماتت فيه الطواويس؟ سأل نفسه وأضاف: أيكون هذا قدرها المحتوم؟

«لا تذكري الصعوة أمامي بعد الآن». قال لخادمته ضاحكاً وذهب ليستلقي في جناح الشاي، وفيما كانت الجراء تداعب شعره اختار من بين الأقفاص الستة أو السبعة عشر القفص الذي يربّي فيه ثبجاً صغيراً وأخذه معه إلى غرفة المكتب.

عندما رأت وجه الرجل أخذت عينا العصفور المستديرتان تدوران في محجريه بهلع. ودسّ رأسه بين كتفيه متلفتاً يميناً ويساراً وأخذ ينفخُ ويحدث طقطقة بمنقاره. كان لا يأكل أبداً حين يرى أنّ هناك من يراقبه. وحين تمتدّ إليه أصابع بقطعة لحم، كان ينتزعها بحركة عنيفة، ولكنّه كان يبقيها على طرف منقاره دون أن يبتلعها.

مكث الرجل، مُصرّاً على عناده، حتّى طلوع النهار بقرب الثبج، إلا أن هذا الأخير كان يلازم جموده بلا حركة بسبب هذا الحضور المربك ولم يلتفت ولو مرّة إلى الطعام الذي بجواره. ولكن عند بزوغ الفجر، اقترب العصفور، الذي لا بدّ أن يكون الجوع أنهكه، من قطعة اللحم. وفاجأه الرجل بنظراته حين لفته وقع قائمتيه على المجثم. كان العصفور الكاسر يمدّ عنقه باتجاه وليمته، وقد انتصبت أرياش رأسه وأغمض عينيه نصف إغماضة، ولكنّه سرعان ما رفع رأسه ونفخ بحقدٍ باتجاه الرجل قبل أن يقف مكانه غير مبالٍ بأيّ شيء. زعم الرجل أنّه ينظر في اتجاه آخر. وما هي إلّا هنيهات حتى عاد وسمع نقلة العصفور. التقت أنظارهما. فتخلّى العصفور نهائياً عن طعامه. تكرّر هذا الموقف مراراً، حتّى علا إنشاد عصفور الضُّرُّب ترحيباً ببهجة الصباح. أمّا الرجل فلم يشعر للحظة واحدة أنّه يحقد على الثبج الصغير، بل جعله تسليته وعزاءه.

«تماماً، هذا ما أسأله لنفسي: هل يمكن أن يعثر واحدنا على خدم لهم طباع مماثلة؟

- تسأل نفسك؟ إذن لا زالت فيك بقيّة تواضع؟».

عَقَدَ ما بين حاجبيه، وأشاح بوجهه عن صديقه الذي يحدّثه وراح ينادي عصفور الضرُّب: كي! كي! كي!

فأجاب العصفور بصوت قويّ وواضح وبدا طليقاً لا يعيقه شيء مما يحيط به.

إن الضرُّب هو عصفور كاسر مثل الثبج، ولكنّ الأول الذي اعتاد أن يأكل على راحة الرجل كان يبدو أليفاً ومغناجاً. فهو لا يكاد يسمع وقع أقدامه أو كحّته الخفيفة حتى يستقبله بهرجٍ ومرج. وكان حين يخرج من القفص يحط على كتفه أو على ركبتيه وهو يصفق بجناحيه بغبطة كبيرة.

كان يضع العصفور، وكأنه جرس المنبّه الصباحي، بجانب رأسه، قرب سريره. ومنذ الفجر كان العصفور يُطلق صرخةً كلّما تقلّب في فراشه أو حرّك يداً أو سوّى وسادته أو حتى كلّما بلع ريقه. ثمّ لا يلبث أن ينتزعه من هدأة النعاس، ولكن، هذه المرّة، بصوتٍ بديع وكأنه برق يشقُّ صباح الحياة.

وبعد تبادل بعض الأحاديث والأصوات، يكون الرجل قد استيقظ جيداً. وعندها يأخذ عصفور الضّرّب بالغناء على سجيّته مقلّداً إنشاد عددٍ من العصافير المختلفة.

«ليتبارك هذا الصباح الجديد!» هذا ما كان يثيره في أعماقه الضُّرُّب بشير الصباح. وكانت تتبعه في إنشاده عصافير أقرب. ينهض الرجل، في ثياب النوم، يأتي ببعض العصيدة ويقدّمها له على طرف إصبعه فيعضه العصفور الجائع بشهيّة، ولكن قد يكون هذا علامة مودّة أيضاً.

إذا كان مضطراً إلى المبيت خارج بيته، أو إذا كان مسافراً، كان يحلم دائماً بحيواناته فيصاب بالأرق. وعلى أيّة حال كان قليل الأسفار ونادراً ما يغيب عن داره. فمهما بلغ ضجره من عيشه وحيداً، فإن عاداته التي اكتسبها غلبت على طباعه. وكان حين يخرج في زيارة أو لشراء بعض الحاجيّات لا يلبث أن يعود أدراجه حتى قبل أن يقطع نصف الطريق. وكان أحياناً يصطحب معه خادمته الصغيرة، لأنّ لا زوجة لديه ولأنه لا يجد رفقةً أفضل.

حتَّى حين ذهب لمشاهدة شيكاكو وهي ترقص، اصطحبها معه وحمّلها سلّة ورد. فبهذه الطريقة لا يعود بإمكانه أن يبدّل رأيه ويقول: «انتهى الأمر، هيا بنا نعود أدراجنا».

كانت الحفلة التي تنظّمها إحدى الصحف الفنية بمثابة مباراة في الرقص. إذ تشارك فيها خمس عشرة راقصة. وكان الرجل لم ير شيكاكو ترقص منذ سنتين، وفي المرّة الأخيرة كانت في مرحلة انهيار فنّي فلم يستطع أن ينظر إليها. كانت الحيويّة البريّة خبت وحلّ في مكانها نوعٌ من التكلّف السوقي. وبات إيقاع الراقصة نفسه هجيناً وجسد الراقصة مترهلاً.

مهما كان من حديث السائق... لقد صادف فعلاً تلك الجنازة. وجثتا الصعوتين كانتا لا تزالان في داره. لذلك تذرّع بعدم رغبته في أن يكون نذير شؤم للفنّانة وأرسل الخادمة حاملةً سلّة الورد إلى حجرة الكواليس، ولكنّها عادت وقالت له بأن شيكاكو تريد، بإصرار، أن تكلّمه هو. منذ أن رآها ترقص كان يصعب عليه أن يحدّثها طويلاً، وفضّل أن يفعل ذلك أثناء الاستراحة. غير أنه حين وصل إلى باب حجرتها أحسّ بضيق في صدره وأسرع بالاختباء وراء الباب.

كانت شيكاكو تجلس قبالة رجل يزيّن وجهها بالمساحيق.

كانت مسترخية، صامتة ومغمضة العينين وقد أسندت رأسها إلى الخلف. وجهها أبيض وساكن، وجه دمية بلا حياة لم تُرسم عليه بعد شفتان وحاجبان ورموش، وجه كأنّه قناع الموتى.

لعشر سنوات خلت، كان حاول الانتحار معها. فقد كان يردّد في تلك الفترة لكلّ الناس أنه يريد أن يموت، وأصبحت هذه الفكرة هاجساً، الأمر الذي يعني، ضمناً، أنه لم يكن يجد سبباً واضحاً لاختفائه. كانت خاطرة عائمة، زهرة الزبد في تلك الحياة التي انقضت موحشةً بين حيواناته. ألم يجد في شيكاكو الرفيق المرتجى في رحلة الموت، تلك الفتاة التي كانت تعيش دون أن تحيا، كما لو أنها كانت تنتظر أملاً يأتي به الآخرون من الخارج؟ وبالفعل،

وافقت شيكاكو على ما صارحها به وكأنها لم تكن تفهم شيئاً مما كانت تقدم عليه، ولم تضع في المقابل سوى شرط واحد:

«اربط ساقيّ بإحكام. فأنا أحسب أن المرء يتحرّك ويتململ كثيراً وهو يموت».

وفيما كان يربط ساقيها بحبل رفيع، استسلم، ولكنْ بعد وقت، للدهشة لشدّة جمالهما. «سوف يروون أنني متّ برفقة فتاة جميلة».

تمدَّدت، وظهرها له، وأغمضت عينيها بسذاجة وهي تمدّ عنقها إلى الأمام ضامّة يديها. وعندها انتابه الحدس الساطع برأفة العدم.

«آه! لا ينبغي أن نموت!».

لطالما خانته النيّة الثابتة في أن يقتل أو أن يموت، طبعاً. فهل كانت شيكاكو صادقة؟ أم أنها كانت تمثّل رغبتها في الموت؟ لم يتمكن من معرفة الحقيقة أبداً: إذ لم تكن تبدو لا صادقة ولا ممثلة. وكان كل هذا حدث بعد ظهيرة يوم صيف.

تملّكه لفترة طويلة بعد هذه الحادثة إحساس بالدهشة حتّى أن فكرة الانتحار، أو مجرّد الخوض في موضوعه لم تراوده مرّة ثانية على الإطلاق. وفي أيّة حال كان يحفظ -وهذه الفكرة سطعت في قلبه حين رآها- امتناناً شديداً لهذه المرأة الشابة.

كان هذا الوجه، المستسلم ليدي المزيّن، يذكّره بوجهها آنذاك حين ضمّت يديها، يذكره بالوجه الذي كان يسكن أحلامه. وحتّى في أحلك أوقات الليل، كان يستعيد، كلمّا تذكّر شيكاكو تلك، أحلامه التي يرى نفسه فيها وهو يعوم في دفق من الأنوار البيضاء، في أوج الصيف.

«ولكن لماذا اختبأتُ فجأة خلف الباب؟» سأل نفسه وقد أدرك أنه أصبح في الرواق. وهناك صادف رجلاً، لم يستطع أن يتعرّف عليه جيداً، حيّاه بودّ.

«إنه مدهش حقاً؟ بعد أن رأينا عدداً من الراقصات، استطعنا أن نحيط موهبتها بما تستحق! قال الفلانُ بحماسة شديدة.

- آه» وتذكّر رفيق الجولة، زوج شيكاكو.

«أردت فقط أن آتي لألقي عليك التحيّة. ويجب أن أخبرك بأننا انفصلنا في نهاية العام الفائت. ولكنّ هذا لا يبدّل من كوني أرى رقص شيكاكو الأفضل بين الأخريات. كم هو جميل!».

دون أن يحاول إيجاد تفسير لما يحلّ به، كان الرجل قد جُنَّ جنونه ويحاول أن يفكر في ما يهدّئ من روعه. عندها خطرت له عبارة: فهو كان يجد متعة كبيرة في قراءة كتابات الشبان، وكان في تلك الفترة يقرأ مقاطع من مذكرات فتاة ماتت في سن السادسة عشرة. كانت الأمّ، بعد أن زيّنت وجه الميتة بالمساحيق، كتبت في ختام اليوميّات التي كانت الفتاة تدوّنها، في آخر سطر من اليوم الأخير:

«الوجه مُزّيَّنٌ للمرّة الأولى، كما لو أنها عروس».

1. الغلاف
2. راقصة إيزو
3. راقصة إيزو
4. تلاقي
5. مرثاة
6. القمر في المياه
7. عاشق الحيوان